كتاب العلم من صحيح البخاري

شرح

فضيلة الشيخ

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

تفريغ الدرس الأول

العلم أجل الأعمال وأشرفها عند الله سبحانه وقد أثنى على العلم وأهله، ورفع مكانتهم في الدنيا والآخرة، وهناك آداب تتعلق بالعلم والتعلم منها الحرص على حضور مجالس العلماء وسؤالهم عما ينفع، والعمل بما يتعلمه ومن ثم تبليغه للناس وإرشادهم بالأساليب المناسبة كطريقة السؤال والاختبار، ولا يعذر أحد في إبلاغ ما تعلمه حتى وإن لم يكن فقيهاً فيبلغه عن طريق نشر الكتب أو طباعتها ونحو ذلك، فرب مبلغ أوعى من سامع.

- **كتاب العلم**

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: نشرع في عدة مجالس في الكلام على كتاب العلم من صحيح الإمام البخاري رحمه الله، وإنما كان الاختيار لكتاب العلم من صحيح البخاري؛ لأن العناية بسنة النبي ﷺ وفهم معانيها المتعلقة بفضائل العلم، وربط مسائل العلم وأحكامه وآدابه بهدي النبي ﷺ هو أولى ما ينبغي أن يبني عليه طالب العلم، وهذا من الأمور المهمة التي ينبغي أن يتأصل عليها الطالب، وكتاب العلم من صحيح البخاري كتاب مختصر ميسر، فيه أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام، وآي، وفيه بعض الآثار المروية عن بعض السلف عليهم رحمة الله تبين مسائل العلم وآدابه وأحكامه التي ينبغي لطالب العلم أن يعلمها، وقد صدر البخاري رحمه الله صحيحه بهذا الكتاب بعد كتاب بدء الوحي وكتاب الإيمان، فهو الكتاب الثالث من صحيح البخاري باعتبار أن الوحي علم، وما في هذا الكتاب أيضاً علم الله سبحانه وتعالى الذي علمه عباده، وهذا فضل الله سبحانه وتعالى وإحسانه على هذه الأمة.

قول البخاري رحمه الله: (كتاب العلم)، الكتاب هو من كتب يكتب كتاباً، وأصل هذه المادة الجمع، وإنما سمي الكتاب كتاباً لجمعه لمسائل العلم، وكذلك يسمى كتاباً لالتصاق أوراقه واجتماع الحروف فيه، فربما يكتب الإنسان ورقة واحدة ويقول: كتب فلان كتاباً، أي: جمع فيه وحشد الحروف، وتسمى الكتيبة كتيبة لاجتماع أفرادها بعضهم مع بعض، وهذا أمر ظاهر؛ ولهذا يقول الشاعر:

لا تأمنن فزارياً خلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار

يعني: واجمعها، وأصل الاشتقاق في هذه المادة الجمع أينما استعملت، وهذا ما يذكره العلماء في الكتب والدواوين، وجرى عليه اصطلاح العلماء لهذا الأمر، فيقال: كتاب الإيمان، كتاب العلم، كتاب الوضوء، كتاب الصلاة، أي: الجامع لأحاديث أو آيات أو مسائل هذا الباب، والمراد بالعلم: هو المعرفة والإدراك، وقيل: إن العلم والمعرفة لا يتساويان من جميع الوجوه؛ ولهذا الله

سبحانه وتعالى عالم، ويتحفظ بعض العلماء في إطلاق اسم العارف على الله سبحانه وتعالى بهذا الاعتبار.

باب فضل العلم

قال رحمه الله: [باب فضل العلم، وقول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:11]، وقوله عز وجل: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114]].

وقوله هنا: (باب فضل العلم)، عادة العلماء أنهم يصدرون الأبواب بفضل الشيء الذي يريدون أن يتحدثوا عنه، كفضل الإيمان، وفضل الصلاة، وفضل الطهور وغير ذلك، وعلى هذا يجري الأئمة عليهم رحمهم الله كالإمام البخاري في كتابه الصحيح في كثير من المواضع.

والعلم هو أفضل وأشرف ما يسعى إليه، وذلك أن الإنسان لا يمكن أن يفعل خيراً إلا بالعلم، ولا يمكن أن يؤمن إلا وقد تعلم الإيمان قبل ذلك، ولا يمكن أن يصلي إلا وقد تعلم الصلاة قبل ذلك، ولا يمكن أن يزكي إلا وقد تعلم الزكاة قبل ذلك، إذاً: هو عتبة لكل خير.

ولهذا يقول العلماء إن فريضة العلم أفضل من فريضة العمل؛ لأن الإنسان إذا عمل بلا علم عمل على جهالة وبلا إخلاص وإنما تخمين ولو صادف الحق، كذلك أيضاً فإن نافلة العلم أعظم من نافلة غيره؛ وذلك أن الإنسان حتى في أمر الإيمان لا يمكن أن يؤمن إلا وقد عرف الله، وإلا بماذا يؤمن؟ هذا من الأمور البدهية.

ولهذا نقول: إن معرفة الله سبحانه وتعالى سابقة للإيمان به، وهذه المعرفة منها معرفة فطرية موجودة في ذات الإنسان، وهي التي فطر الله عز وجل الناس عليها، كما قال الله جل وعلا: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:30]، وكما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة: (ما من مولود يولد إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، إذاً: هذه المعرفة موجودة جبلة في ذات الإنسان.

وكذلك أيضاً فإن من المعرفة ما هي معرفة مكتسبة يأتي بها الأنبياء، وذلك بمعرفة حق الله عز وجل على العباد، فالإنسان يعلم أن الله عز وجل هو الخالق، وهو الرازق، وهو المحيي والميت، لكن ماذا يبذل لهذا الرازق وهذا الخالق وهذا المحيي والمميت سبحانه وتعالى؟ يبذل له العبادة، ما هي العبادة؟ الصلاة، ما صفة الصلاة؟ ما هي أركانها وواجباتها ومواقيتها وغير ذلك؟.

لهذا نقول: إن العلم سابق لكل عمل يثاب عليه الإنسان، ومن هذا الوجه يقول العلماء بفضل العلم وجلالة قدره، ويكفي في ذلك قول الله جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:11]، العلماء رفعهم الله وأعلى منزلتهم لهذا الأمر: أنهم يتوجهون إلى الناس بالتعليم، ويقوم الناس بالعلم والعمل، وما من أمة نبي من أنبياء الله عز وجل اتبعوه

إلا وأجر الأتباع يلحق المتبوع.

وهذا كذلك أيضاً في المنذرين والمبشرين والعلماء والدالين الناس إلى الخير، إن دلوهم إلى الخير بصدق وإيمان وإخلاص لله جل وعلا أثابهم الله سبحانه تعالى بقدر ما يفعلون؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: (من سن في الإسلام سنة حسنة)، (ومن دل على هدى)، إلى غير ذلك من الأمور التي تدل على منزلة العالم.

فقد ذكر الله عز وجل رفع العلماء، وجاء في حديث أنس بن مالك عند الإمام أحمد في المسند قال: (العلماء كالنجوم)، في هذا جملة من الإشارات منها: أن النجم ثابت بخلاف الكواكب، الكواكب تسير والنجم ثابت، وثبوت النجم فيه دلالة أنه لا يتغير ولا يتحول ولا يتبع الأبصار، وإنما الأبصار تتبعه، يعني لا يتأثر بالجماهير، وإن حيل بينه وبين دعوته يبقى كحيلولة السحاب عن النجم، لا يتغير حتى يراه أهل الأرض، فيراه الجمهور حيل عنه هنا فيذهب هنا ليراني حتى يتزحزح عن مكانه الذي هو عليه، يصبر وينتظر حتى تزول تلك السحابة ثم يرى، فهو ثابت وهو دليل؛ ولهذا الكواكب دلالتها تختلف عن دلالة النجوم، النجوم دلالتها في ذلك ثابتة باعتبار أن النجم هو علامة ثابتة يعرف الإنسان بها الجهات، أما الكواكب المتحركة فيعرف الإنسان بها الأوقات، وهذا أمر معلوم وأمر مشاهد.

(﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:11])، وقد سبّق ذكر الإيمان قبل العلم؛ لأن الإنسان إذا كان عالماً بلا إيمان كان فيه شبه من إبليس؛ لأن إبليس هو من أعلم مخلوقات الله سبحانه وتعالى بالله، فهو يعلم الله جل وعلا، وشاهد الخطاب، وشاهد الأنبياء على مر العصور منذ أن أنزل الله عز وجل آدم، وطرد الله عز وجل إبليس، وأخرجه وأنزله إلى الأرض، فشاهد ما جاء من أنبياء الله عز وجل بعد ذلك، ورأى مراتب الانحراف في الأمم، والشر في ذلك ونحوه، بل إنه يعلم من الحق ما لا يعلمه كثير من العلماء أو أكثر العلماء؛ لأنه شاهده وعاينه من غير واسطة، فكان أضل؛ لهذا العالم الذي زكاه الله عز وجل هنا هو الذي حمل الإيمان.

فقوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:11] فيه إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان كلما ازداد علماً أن يزداد عملاً، وأن يزداد إيماناً؛ ولهذا يقول غير واحد من السلف كما جاء عن سفيان: ما ازداد الرجل علماً فازداد من الدنيا قرباً إلا ازداد من الله بعداً؛ لأن الإنسان إذا كان عالماً ثم توجه إلى الدنيا في هذا إشارة إلى أنه تعلم العلم للعمل أو للدنيا؟ تعلم العلم للدنيا.

ولهذا ينبغي للإنسان أنه كلما تقدم خطوة في العلم أن يتفقد نفسه في العمل، إذا وجد أنه ينقص عملاً فليراجع نفسه وليقم بالتصحيح فإن مساره منحرف، ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:11]، ثم قال الله جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:11] بما تعملون أو تعلمون؟ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة:11]إشارة إلى أن العمل بالعلم مطلب، وهو الذي يزكيه، وهو الذي يثبت صدق الإنسان، تعلمت حكماً من أحكام الله عز وجل فوجب عليك أن تعمل به؛ وقد كان السلف الصالح يخشون من العلم بلا عمل ولو كان أمراً يسيراً؛ ولهذا يقول الإمام أحمد رحمه الله: ما من شيء

بلغني عن رسول الله ﷺ أنه فعله إلا وفعلته، حتى إن النبي ﷺ احتجم وأعطى حجاماً ديناراً، فاحتجمت وأعطيت الحجام ديناراً. هذا فيه تزكية للعلم؛ ولهذا نقول: ينبغي لطالب العلم أنه من تعلم حكماً من أحكام الله عز وجل وهو قادر على العمل به فعليه أن يعمل به حتى يجمع بين العلم والعمل.

وفي قول الله جل وعلا: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114] هنا الخطاب توجه إلى رسول الله ﷺ، ولم يأمر الله جل وعلا نبياً من أنبيائه أن يسأله زيادة في شأن من أمر الدين والدنيا إلا العلم؛ وذلك أنه باب الخير للإنسان، وهذا دليل على فضله، فما أمره بأن يدعوه أن يستكثر من المال أو الجاه أو السيادة أو القبول في الأرض أو غير ذلك، أمره بأن يسأله الزيادة في العلم ((وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا))، وفي هذا أيضاً إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان كلما صعد في مراتب العلم أن يقر بجهله، فإن باب العلم متسع لا يمكن أن تبلغه، ولا ينبغي للإنسان أن ينظر إلى سعة علمه، بل ينبغي أن ينظر إلى سعة جهله؛ وذلك حتى يتواضع، وأن يقدر لله عز وجل قدره، ومن أسباب التواضع أن يكثر الإنسان من سؤال الله عز وجل زيادة العلم فإن في ذلك إشارة إلى فقره إلى تعليم الله سبحانه وتعالى.

باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل

قال رحمه الله: [باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل.

حدثنا محمد بن سنان، قال: حدثنا فليح ح، وحدثني إبراهيم بن المنذر، قال: حدثنا محمد بن فليح، قال: حدثني أبي، قال: حدثني هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: (بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين أُراه السائلُ؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)].

في هذه الترجمة من البخاري رحمه الله استنباط لطيف، وهو ما يتعلق بأن الإنسان إذا سئل شيئاً وهو منشغل بغيره هذا من آداب الجواب ومن آداب السؤال، وفيه فوائد، وتقدم الإشارة إلى أن كتاب العلم إنما وضعه البخاري رحمه الله ليبين جملة من المسائل لمن ينظر في هذا الكتاب العظيم، وهو أصح الكتب بعد كتاب الله سبحانه وتعالى، والأمة أطبقت واتفقت على قبول ما فيه عن النبي ﷺ، ولا يكاد الإنسان يلتمس في هذا الكتاب شيئاً من الأحاديث الضعيفة فضلاً أن يكون دون ذلك مرتبة من المنكر والمردود أو الموضوع، وإنما مواضع الخلاف في ذلك هي في معرفة مواضع العلل غير القادحة في هذا الكتاب، كذلك أيضاً في بعض الألفاظ الواردة فيه التي هي موضع خلاف حقيقي عند العلماء في قبولها أو ردها؛ لأننا لو قلنا بقبوله كله لكان حكماً في حكم المصحف من جهة دقة ألفاظه وتمامها، نقول: هو ليس كالمصحف باعتبار أن ثمة ألفاظ يسيرة هي موضع خلاف عند العلماء، وأما مجموع أحاديثه وألفاظه فهي محل قبول عند الأئمة.

في هذا الكتاب يذكر المصنف رحمه الله جملة من آداب العلم، آداب التلقي، آداب التعلم والمعرفة، هذا من الأمور المهمة التي ينبغي لطالب العلم أن يعرفها في حال السائل وفي حال المجيب، وفي حال المسئول عنه أيضاً وهي مواضع العلم، وفي هذا يظهر سنة النبي ﷺ في التعليم، وهديه في الرحمة بالناس واللطف بهم.

وهنا أن هذا الرجل سأل النبي ﷺ سؤالاً، وكان منشغلاً بغيره، ففي هذا أن الإنسان لا يقدم المفضول على الفاضل ولو وجد داعٍ إليه، فالنبي ﷺ سئل عن شيء وهو منشغل بغيره، فاستمر في حديثه ولم يجب ذلك السائل.

وفي هذا أيضاً أن النبي ﷺ كان حريصاً على إجابة السائل؛ لأن كتمان العلم لا يجوز، والله جل وعلا إنما بعث أنبياءه لتعليم الناس وإرشادهم من غير سؤال، فكيف وقد حصل السؤال، ويروى في الخبر (أن من كتم علماً ألجم بلجام من نار يوم القيامة)؛ لهذا كان الأنبياء أعلى الناس مرتبة في باب البلاغ، وأخشاهم لله سبحانه وتعالى في هذا الأمر بإبراء الذمة في تعليم الناس؛ ولهذا النبي ﷺ في غير ما موضع في أمر البلاغ يقول: (اللهم بلغت، اللهم فاشهد)، يعني: إبراء للذمة بالبلاغ.

ولم يفوت النبي ﷺ أيضاً سؤال السائل مع انشغاله بالفاضل عن المفضول، أي: أن الإنسان إذا وجد لديه فاضل ومفضول وأمكنه الجمع بينهما فإنه يأتي بهما، فسئل النبي عليه الصلاة والسلام وهو منشغل بفاضل، سأله سائل سؤالاً مفضولاً عند النبي ﷺ وإن كان يراه أنه هو الفاضل، في هذا إشارة أيضاً إلى أنه ينبغي للإنسان ألا يتنازل عن الفاضلات إلى المفضولات نزولاً عند رغبات الناس وإجابة لهم؛ ولهذا رسول الله ﷺ ما جامل أحداً في باب العلم، فكان النبي عليه الصلاة والسلام منشغلاً بما هو أولى بالبيان، فما قال أجامل فلاناً؛ لأن رسالته أولى من غيره، وهذا السائل ما سأل النبي عليه الصلاة والسلام إلا وهو يرى عند نفسه أن سؤاله أولى بالجواب من استرسال النبي ﷺ في ظاهر السير، وهو حسن المقصد في ذلك، لكن حسن المقصد لا يجعل النبي ﷺ يدع ما هو عليه من الأمور الأولى في البيان، فانشغل النبي عليه الصلاة والسلام بالفاضل وترك المفضول، ثم استدرك ذلك المفضول وقام بأدائه عليه الصلاة والسلام.

ويقول هنا قال: (جاء أعرابي قال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث)، في هذا أيضاً حسن خلق النبي ﷺ، فما عنف ذلك السائل مع كونه قد قاطع رسول الله ﷺ، فما قال له: اسكت، أو دع، أو أنصت، أو غير ذلك، وإنما استرسل في حديثه وهو يدرك أن الاسترسال كافٍ في الانصراف عنه إلى حين وقته، ثم أجابه بعد ذلك تعليماً له وتطييباً لخاطره، وإبراء لذمته.

قال: (فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع)، يعني: أن النبي ﷺ ظهر منه التجاهل لهذا السؤال وانصرف إلى غيره، كذلك أيضاً ينبغي للسائل إذا سأل أحداً ثم انصرف عنه أن يعذره ربما كان منصرفاً إلى أمر فاضل، ومثل هذا لا يعني احتقاراً ولا ازدراء، بل يعني أنه انشغل بشيء أولى من أمر البلاغ، وينبغي أيضاً للمتحدث أو للعالم أن يجيب السائل ولو بعد حين إبراء للذمة.

ثم هنا في سؤال الأعرابي عن أمر الساعة أجابه النبي ﷺ، وإنما المراد بالساعة هو يوم القيامة، وإنما سميت بالساعة باعتبار أنها

تأتي في لحظة على الناس، والساعة تطلق على اللحظة، وتطلق على الساعة الزمنية كما هي معروفة في وقتنا، والعرب تقسم الساعات الليل والنهار إلى أربع وعشرين ساعة، وهذا أمر معلوم كما جاء في حديث النبي ﷺ: (من جاء في الساعة الأولى)، يعني: يوم الجمعة إلى آخر الخبر، فنقول حينئذ: إن تقسيم ساعات الليل والنهار هي اثنا عشر ساعة في النهار ومثلها في الليل، فقول النبي ﷺ: (أين أُراه السائلُ عن الساعة؟) يحتمل أن هذا الأعرابي قد غير مكانه، أو انتقل أو تحول أو نحو ذلك، ثم أجابه النبي ﷺ فقال: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)، والمراد بتضييع الأمانة: هو عدم أداء الواجب على من استحق التكليف، يعني: قام التكليف على الإنسان، ثم فرط في أداء الأمانة، وهذا يتوجه إلى الناس كلهم، إلى الحاكم، وإلى العالم، وإلى العامة، وتفريط الحاكم في الأمانة يكون فيما ولاه الله عز وجل من القيام بأمره سبحانه وتعالى، كذلك أيضاً في جانب الأموال، وذلك بتضييع الحاكم أموال الشعوب وتبذيرها والإسراف فيها والاستئثار بذلك، أيضاً العالم يكون بأمر البلاغ والتسويف أو الميل إلى الدنيا أو المداهنة في دين الله عز وجل، وتعطيل أمره سبحانه، وكذلك أيضاً بالنسبة للعامة في أداء الأمانة فيما يتعلق بأمر الله سبحانه وتعالى بما عقده الله عز وجل بينه وبين عباده إلى جانب الدنيا والانصراف، كذلك إضاعة الأمانة فيما بين الناس من جهة نكران الأمانات وجحدها من ذلك السرقة، وغصب الأموال والأراضي وغير ذلك، فإذا ظهر هذا في الأمة فإن هذا من أمارات الساعة، حتى إن الإنسان ربما لا يثق بأقرب الناس إليه، ولا يستطيع أن يضع وديعة عنده لخوفه على ماله، وهذا إشارة إلى ضعف الأمانة في الناس.

وهنا قال: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) وهذا من أماراتها الصغرى، قال هنا: (إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)، وذلك بتسليط حكام جهلة بعيدون عن إقامة حكم الله عز وجل ومراده، وكذلك أيضاً أن يتصدر في الناس أهل الجهل لا أهل العلم، يقول النبي ﷺ كما جاء في حديث ابن العاص في الصحيح قال: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)، هذا من علامات الساعة، يعني: إذا ظهر ذلك من الإنسان فرأى من يتصدرون للناس في العلم والفتوى وتوجيه الناس وهم على جهل، فهذا إشارة إلى أن الأمر أسند إلى غير أهله، كذلك إذا تصدر في الأمة حكام أو ولاة على اختلاف ولاياتهم الكبرى أو الصغرى وهم ليسوا من أهل الأمانة، وليسوا من أهل الثقة، وليسوا من أهل الديانة، واستأثروا بالأمر فهذا من أمارات الساعة الصغرى.

باب من رفع صوته بالعلم

قال رحمه الله: [باب من رفع صوته بالعلم.

حدثنا أبو النعمان عارم بن الفضل، قال: حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك، عن عبد الله بن عمرو قال: (تخلف عنا النبي ﷺ في سفرة سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة، ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار. مرتين أو ثلاثاً)].

قال هنا: (باب من رفع صوته بالعلم)، ورفع الصوت بالعلم له فوائد: منها البلاغ، ومنها بيان أهمية القول، البلاغ حتى يسمع من كان بعيداً، فإنه يجب على العالم أن يعلم الجاهل في موضعه الذي يسمعه؛ ولهذا النبي ﷺ كما في الصحيح كان يخطب في العيد للرجال، ثم يتوجه إلى النساء ويخطب فيهن، هذا إشارة إلى أنه يبلغ من احتاج إلى بلاغ إذا لم يبلغه صوته، وهذا هو الفائدة الأولى من رفع الصوت هو البلاغ.

الثاني: بيان أهمية الخطاب والمعنى الذي يريد الإنسان إيصاله إلى الناس برفع صوته، هذا من الأمور المقصودة برفع الصوت، أي بيان أهمية هذا المعنى إما أن يصرخ في الناس ونحو ذلك؛ ولهذا (كان النبي ﷺ كثيراً إذا خطب في الناس احمر وجهه وعلا صوته)، وفي ذلك بيان لأهمية هذا الخطاب وهذا القول؛ ولهذا نقول: هذا يكون غالباً في جوانب الخطب وانتقاء المعاني، وفيها أيضاً من التخويف والترهيب والترغيب وبيان الخطورة، وهذا يختلف من مقام إلى مقام، ومن حال إلى حال.

قال هنا: (رفع صوته بالعلم)، وهذا يظهر في هذا الحديث في الصلاة قال: (فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار)، والمراد من رفع الصوت هنا هو النوع الأول وهو أن يسمع الناس ذلك الخطاب، (ويل للأعقاب)، وويل وعيد وتهديد لمن فعل ذلك؛ أي: أنهم توضئوا وقصروا وذلك لتعبهم في حال السفر، وربما يتوضأ الإنسان على عجل ويبقي شيء من عقبه، فهنا أمر النبي ﷺ أن ينادي المنادي (ويل للأعقاب من النار)، أي: توعد الذين أبقوا من أعقابهم شيئاً وقصروا في الوضوء أن الله عز وجل يعذبهم بمقدار تقصيرهم ذلك، واختلف العلماء في ذكر العقاب هنا هل الإنسان يعذب بعقبه أو المراد بذلك بأهل الأعقاب، فيقال: ويل لأهل الأعقاب؟ فيحذف ذلك باعتبار المعرفة والعلم بداهة بذلك، فنقول: كلا القولين محتمل، وهو شبيه بقول النبي عليه الصلاة والسلام: (ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار)، يعني: هل هذا يعذب ما أسفل من الكعبين أو يعذب صاحبها؟ كلا الأمرين محتمل، والله أعلم.

وقوله هنا: (مرتين أو ثلاثاً) فيه تكرار العلم، أن الإنسان يكرر العلم، وله ترجمة عند المصنف تأتي بإذن الله.

باب قول المحدث: حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا

قال رحمه الله: [باب قول المحدث: حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا، وقال لنا الحميدي: كان عند ابن عيينة حدثنا وأخبرنا وأنبأنا وسمعت واحداً، وقال ابن مسعود: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق. وقال شقيق، عن عبد الله: سمعت النبي ﷺ كلمة. وقال حذيفة: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين. وقال أبو العالية، عن ابن عباس عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه. وقال أنس عن النبي ﷺ يرويه عن ربه عز وجل. وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربكم عز وجل.

حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة

فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة)].

هنا في قول المصنف رحمه الله: (باب قول المحدث: حدثنا وأخبرنا وأنبأنا) هذه تسمى صيغ السماع، ومراده بالمحدث يعني حامل الحديث، وليس المراد بذلك هو المعنى الاصطلاحي عند أصحاب الحديث، وذلك أن مثل هذا الاصطلاح أصبح علماً على معنى من المعاني بوضع العلماء عليهم رحمة الله، ولكن المراد بذلك هو المعتني بعلم الحديث، قال: (باب قول المحدث: حدثنا وأخبرنا وأنبأنا)، هذه صيغ السماع، والعلماء يختلفون هل صيغ السماع متشابهة أم هي متباينة؟ منهم من يقول: هي واحدة باعتبار أنها تفيد السماع، ومنهم من يقول: إنها مختلفة، لكن نقول: إن السماع من جهة الحقيقة يختلف، منه ما يسمع من المحدث مباشرة، ومنه ما يكون عرض على المحدث، أي: أن التلميذ يقرأ من كتاب الشيخ والشيخ يسمع والناس يكتبون، إذاً الشيخ لم يتكلم، كتب كتاباً ثم قرأه التلميذ، هذا يطرأ عليه شيء من الغفلة، أو الخطأ في قراءة التلميذ، أو ربما تجاوز سطراً أو أسقط شيئاً من ذلك أو كلمة، أو صحفها في حين غفلة فيكتب خلاف ذلك، وهذا يستعملونه غالباً في لفظ الإخبار.

والتحديث والسماع غالباً يكون بالسماع من فم الشيخ مباشرة لا بمجرد العرض، ومنهم من يساوي بين هذا وهذا، لكن نقول: إن ما كان سماعاً من الراوي مباشرة فهو يختلف، ما حُدث به الإنسان فرداً، وما حُدث به جماعة، فما حدث به منفرداً هذا أقوى؛ لأن السامع يرعى وينصت، ويطرق للمحدث، بخلاف لو كان الإنسان أمام جماعة، الآن أنتم أمامي جماعة وتسمعون الحديث لو كان واحداً منكم أمامي ولم يكن معه أحد من الحضور لكان أشد انتباهاً؛ لأن الخطاب ينصب إليه منفرداً؛ ولهذا إذا قال الراوي: حدثني وأخبرني وأنبأني هذا أقوى، إشارة إلى أنه كان وحده، أما إذا كان مع جماعة فهو يأتي بعد ذلك؛ فقول الراوي: إنه حدثني أقوى من حدثنا، وأخبرني أقوى من أخبرنا، وأنبأني أقوى من أنبأنا، وسمعت أقوى من سمعنا، باعتبار أن الخطاب توجه إليه، فالمحدث منتبه في ذلك، والمستمع كذلك أيضاً منتبه في هذا.

ويأتي بعد ألفاظ السماع ما يسمى بالعنعنة: وهو رواية الراوي عن شيخه بغير سماع، يقول: عن فلان، أو أن فلاناً قال، أو قال فلان مما لا يفيد سماعاً، والأصل فيه أنه محمول على السماع إلا إذا كان الراوي متهماً بالتدليس، فإذا كان متهماً بالتدليس فإن الحديث في ذلك يرد، وهنا نقل عن جماعة من العلماء الذين يرون أن صيغ السماع واحدة، كما نقل ذلك عن الحميدي .

ثم ذكر أيضاً استعمال هذه الصيغ وأصلها وتاريخها، وأنها موجودة حتى في كلام النبي عليه الصلاة والسلام كما ذكر هذا في حديث عبد الله بن عمر، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (فحدثوني)، يعني: أن هذه العبارة كانت تجري في كلام رسول الله ﷺ، وكذلك الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، كحال عبد الله بن مسعود في قوله: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، وكذلك أيضاً لفظ سمعت قاله عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ، ولفظ الرواية جاء عن عبد الله بن عباس، وكذلك أيضاً عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ وغير ذلك، وفيه استعمال النبي عليه الصلاة والسلام لهذا في قوله عليه الصلاة والسلام: (إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها)، ويأتي الكلام عليه بإذن الله عز وجل فإن المصنف يكرره معنا بإذن الله.

باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم

قال رحمه الله: [باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم.

حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان، حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ قال: فوقع الناس في شجر البوادي، قالعبد الله: فوقع في نفسي أنها النخلة، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة)].

هنا في ذكره لمسألة (طرح الإمام المسألة لأصحابه ليختبر ما عندهم من العلم) إشارة إلى عناية النبي ﷺ بأصحابه، وهذا ما ينبغي أن يقتدي به العالم أيضاً في ذلك ليبين مدى ما عنده من علم وإدراك لما خاطبهم به، وهذا يكون بطرح السؤال.

كذلك أيضاً فيه دفع للمنافسة بين المتعلمين حتى يتنافسوا في تحقيق العلم، فإن الله عز وجل أمر بالمنافسة ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:26]، يعني: أن الإنسان يسابق غيره في عمل المعروف؛ ولهذا الله عز وجل يقول: ﴿وَسَارِعُوا﴾ [آل عمران:133]، ﴿سَابِقُوا﴾ [الحديد:21]، يعني: أن الإنسان يرى أن معه غيره ممن يسعى في هذا الطريق فينبغي أن يسبقه حتى يفوز، ولكن يكون ذلك مع صدق نية وإخلاص لله جل وعلا.

ورسول الله ﷺ يطرح المسائل لأصحابه لينظر ما لديهم من علم ومعرفة، وهذا يظهر في أحاديث كثيرة، منها ما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام حينما ترك أبا بكر الصديق يؤول الرؤيا ثم لما انتهى قال: (أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً)، ولم يدع النبي ﷺ التأويل له مجرداً، وإنما نظر إلى حال تأويل أبي بكر الصديق عليه رضوان الله تعالى، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يمهل الطالب بالجواب، وكذلك أيضاً بالمعرفة، وحتى يميز الإنسان ما عنده، وحتى يظهر المتميز عن غيره فيكون في ذلك حثاً وحظاً لغيره أن يقتدي به.

وقوله: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟)، فيه أن عبد الله بن عمر عليه رضوان الله مع صغر سنه إلا أنه أدرك الجواب مع وجود الكبار، وفيه أيضاً حياؤه من الكلام والجواب مع وجود الكبار في قوله: (فاستحييت) يعني: أن أجاوب مع وجود العلية الكبار كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالبوغيرهم من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام؛ أي: أن الصغير ينبغي أن يحترم الكبير، وهذا شيء من الحياء والفطرة في هذا، وهو في ظاهر السياق أنه تمنى لو أجاب حتى يحظى بثناء النبي ﷺ عليه ومدحه له، ومعرفة ما لديه أيضاً من علم وخير ومعرفة في ذلك.

وفي هذا أيضاً فضل النخل وفضل المؤمن، فالمؤمن في فضله أينما يوجه يأت بالخير، إن تعامل الإنسان معه بالمال كان صاحب أمانة وثقة ووفاء، وإذا تعامل معه بالصحبة كان صاحب تحمل وصبر وإعانة وتسديد، وإذا كان في الجهاد كان صاحب ثبات وقوة، وإذا كان في العبادة كان معيناً عليها بحسب مرتبته في جانب الإيمان، كذلك أيضاً فإن النخلة كل ما فيها ينفع ويستفاد

منه وذلك بثمرها، وكذلك أيضاً بعسبها وساقها وغير ذلك مما يستفيد منه الناس، بخلاف بقية الأشجار التي يستفيد منها الناس بثمارها، وقل ما يستفيدون فيما عدا ذلك.

وقوله: (ليختبر ما عندهم من العلم)، الاختبار على نوعين:

اختبار من الطالب للعالم، والنوع الثاني: اختبار العالم للطالب، اختبار العالم للطالب هذا المعلوم عن النبي ﷺ.

وأما اختبار الطالب للعالم ليستوثق ما لديه، فإن ثبت ما لديه من علم ومعرفة أمسك به، نقول هذا على حالين:

الحالة الأولى: إذا كان يريد بذلك أن يبحث عن شيء من الأغلوطات وشيء من الزلات حتى يقوم بالقدح فيه فهذا من الأمور المنهي عنها، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود: (أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات)، والأغلوطات في المسائل أن يبحث الإنسان عن الزلات.

وأما إذا كان يريد من ذلك الاختبار ليستوثق ما لديه من علم، وقد كان الأعراب منهم من يأتي للنبي عليه الصلاة والسلام ويستوثق ويسأله، وربما يقسم عليه، فكما جاء في الصحيح: (إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، إني سائلك بالذي رفع السماء وبسط الأرض ونصب الجبال، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: اللهم نعم) إلى آخر الخبر، يعني: يريد أن يستوثق في مثل هذا؛ لأن الإنسان يريد من ذلك أن يستبرأ لدينه، وأن يأوي إلى ركن شديد في هذا، نقول: مما لا حرج فيه إذا أراد من ذلك استيثاقاً، ولا يريد من ذلك مغالطة أو ترصداً أو تربصاً.

باب القراءة والعرض على المحدث

قال رحمه الله: [باب القراءة والعرض على المحدث، ورأى الحسن والثوري ومالك القراءة جائزة، واحتج بعضهم في القراءة على العالم بحديث ضمام بن ثعلبة قال للنبي ﷺ: (آلله أمرك أن نصلي الصلوات؟ قال: نعم) قال: فهذه قراءة على النبي ﷺ أخبر ضمام قومه بذلك فأجازوه، واحتج مالك بالصك يقرأ على القوم فيقولون: أشهدَنا فلان، ويُقرأ ذلك قراءة عليهم، ويُقرأ على المقرئ فيقول القارئ: اقرأني فلان.

حدثنا مُحَمَّد بن سلام، حدثنا مُحَمَّد بن الحسن الواسطي، عن عوف، عن الحسن قال: لا بأس بالقراءة على العالم].

الأصل فيمن اسمه سلام أنه بالتشديد قال: سلاَّم إلا عبد الله بن سلام وهو الصحابي ومُحَمَّد بن سلام شيخ البخاري.

قال رحمه الله: [حدثنا عبيد الله بن موسى، عن سفيان قال: إذا قرئ على المحدث فلا بأس أن تقول: حدثني، قال: وسمعت أبا عاصم يقول عن مالك وسفيان: القراءة على العالم وقراءته سواء.

حدثنا عبد الله بن يوسف، قال: حدثنا الليث، عن سعيد هو المقبري، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر أنه سمع أنس بن مالك يقول: (بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد، ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم مُحَمَّد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: قد أجبتك. فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك. فقال: سل عما بدا لك. فقال: أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم. قال أُنشدك بالله آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم. قال أَنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: اللهم نعم. فقال الرجل: آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر)، رواه موسى وعلي بن الحميد، عن سليمان، عن ثابت، عن أنس عن النبي ﷺ بهذا].

أراد المصنف رحمه الله بهذا أن يتم ما تقدم في مسألة صيغ السماع، فأشار إلى ما يسمى بالإجازة، وهذا هو شبيه أيضاً بالسماع أن الإنسان يبلغ ما لديه، إلا أنه دون السماع مرتبة إلا في مقام النبوة، باعتبار أن النبي ﷺ لا يطرأ عليه الوهم والغلط في البلاغ؛ لأن الله عز وجل عصمه بخلاف غيره، فقد يُقر الإنسان على شيء ويقع في شيء من الوهم والغلط، ولكن ربما أيضاً حتى لو كان الإنسان منتبهاً لا ينتبه.

كذلك أيضاً مسألة العرض من قبل الطالب على الشيخ هذا أيضاً في حكم السماع، وقد جاء هذا عن النبي ﷺ في هذا الحديث، وقد أجازه غير واحد من العلماء كالإمام مالك رحمه الله إمام أهل المدينة، وهو أن يعرض على الشيخ كتابه، ثم يقر ما فيه ويقول: إن هذا الكتاب كتابي حينئذٍ يحدث التلميذ ولو لم يسمعه من فم الشيخ.

ويدخل في ذلك أيضاً مسألة المناولة، بأن يناوله الكتاب ثم يقول: هذا الكتاب هو الذي حدثته أو حدثني به فلان، حينئذٍ كل ما فيه يحدثه فيقول: حدثني هذا الشيخ، وهذا ظهر في حديث الأعرابي الذي جاء النبي عليه الصلاة والسلام فسأله أسئلة وأقسم عليه، والنبي عليه الصلاة والسلام يكتفي بقوله: نعم، يعني: هذا الكلام صحيح، فهذا ينقل الكلام الذي لديه إلى قومه كأن النبي عليه الصلاة والسلام قاله بمضمونه، بينما أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يتلفظ بذلك، وذلك أيضاً كالألواح والكتب وغير ذلك، فإذا عرضها عليه فيقول: هذا كتاب أنت ألفته أو كتبته أو نحو ذلك، فإذا قال: نعم، فله في كل ما فيه أن يقول: حدثني به فلان، أو سمعته من فلان ما دام أنه أقر بما فيه، ويدخل في ذلك مسألة الشهادة، وكذلك أيضاً مسألة الكتب، وكذلك أيضاً مسائل العلم، وهذا جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً في مجموعة من المسائل.

ونقله عن سفيان هنا في قوله: (إذا قرئ على المحدث فلا بأس أن يقول: حدثني. قال: وسمعت أبا عاصم يقول عن مالك وسفيان: القراءة على العالم وقراءته سواء)، يعني: سواء قرأ العالم على التلميذ أو التلميذ قرأ على العالم المضمون واحد، ومن العلماء من يجعل هذه مرتبة دون ذلك.

وما جاء في حديث أنس بن مالك عليه رضوان الله تعالى في سؤال ضمام بن ثعلبة لرسول الله ﷺ، وفي هذا لرسول الله ﷺ نوع من العرض يعني يعرض عليه، الله فرض عليك الصلوات الخمس تصليها في اليوم والليلة، والنبي عليه الصلاة والسلام اكتفى بنعم، والجواب في ذلك أنه يذهب ويقول حدثني رسول الله أن الله فرض عليك خمس صلوات في اليوم والليلة، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام ما نطق هذا اللفظ، فيكون حينئذٍ العرض كحال التحديث.

وفي قوله: (أنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر) بنو سعد بن بكر تربى فيهم النبي ﷺ، وهم من أفصح العرب؛ ولهذا يروى في الخبر: (ولدتني قريش ونشأت في بني سعد بن بكر)، فهو أراد أن يقول للنبي عليه الصلاة والسلام: أنا من القوم الذين كنت فيهم، ونشأت فيهم، وأخذت من لسانهم، إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يعرف بنفسه ولو لم يسأل، أنا فلان بن فلان من القوم الفلانيين، وهو كذلك أيضاً من البلد الفلانية، ونحو ذلك حتى يسكن الإنسان ويطمئن إليه.

طبعاً ما يتعلق بالمسائل العلمية المتضمنة للأحاديث الواردة، فثمة مسائل علمية تتعلق بالأحكام، مثلاً في أحكام الصلوات والأزمنة ومواقيتها وهي لا تعلق لها ببابنا، كذلك أيضاً مسألة الصيام وأحكامه، ورمضان ومراتبه ومسائله، وكذلك أيضاً في الصيام في غير رمضان هل هو واجب؟ يستدل بهذا على عدم وجوب غير رمضان، وكذلك عدم وجوب غير الصلوات النوافل والوتر وغير هذا، وكذلك أيضاً فيما يأتي في أمور الزكاة هل في مال الإنسان حق غير الزكاة؟ هذا من المسائل لو ولجنا فيها لاحتجنا إلى أشهر، ولكن نتعلق هنا بالمسائل المتعلقة بباب العلم التي فيها شيء من المسائل أو الآداب أو الأحكام التي هي تتعلق بباب العلم؛ لأنا نشرح كتاب العلم من صحيح البخاري، وأما لو أردنا أن نسهب في الأحكام الفقهية وكذلك العقدية لأدخلنا هذا في أبواب أخرى، وهذا ربما يؤثر على الوقت، ولا ننتهي من هذا؛ لهذا نقول: إن ما نتجاوزه من أحكام لعدم تعلقه بباب العلم.

باب ما يذكر في المناولة، وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان

قال رحمه الله: [باب ما يذكر في المناولة، وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان.

وقال أنس: نسخ عثمان المصاحف فبعث بها إلى الآفاق، ورأى عبد الله بن عمر ويحيى بن سعيد ومالك ذلك جائزاً. واحتج بعض أهل الحجاز في المناولة بحديث النبي ﷺ حيث كتب لأمير السرية كتاباً وقال: (لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا)، فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس وأخبرهم بأمر النبي ﷺ.

حدثنا إسماعيل بن عبد الله، قال: حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه رجلاً وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق].

يقال: المسيَّب والمسيِّب، المسيِّب مدني، وأهل المدينة يقولون مسيِّب، وغيرهم يقولون المسيَّب كما قال علي بن المديني، وكلاها صحيح إلا أن الأرجح بالكسر ابن المسيِّب، وأما قوله: (سيبوني سيبهم الله) فلم يصح ذلك عنه.

قال رحمه الله: [وحدثنا مُحَمَّد بن مقاتل أبو الحسن، أخبرنا عبد الله، أخبرنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالكقال: كتب النبي ﷺ كتاباً أو أراد أن يكتب، فقيل له: إنهم لا يقرءون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة نقشه: مُحَمَّد رسول الله، كأني أنظر إلى بياضه في يده، فقلت لقتادة: من قال: نقشُه مُحَمَّد رسول الله؟ قال: أنس].

هنا في قول المصنف رحمه الله (باب ما يذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان) بيان أهمية المناولة في العلم، وكذلك الكتابة، وأن الإنسان ربما لا يصل بكلامه بقوله إلى الناس بالعلم، فيجب عليه أن يكتب إليهم، فالكتاب سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة بالبلاغ، وذلك أخذاً لكلام الله عز وجل فإنه عند الله تعالى سبحانه وتعالى مكتوب، وقد أبلغه الله جل وعلا نبيه ﷺ بواسطة جبريل بلاغاً، فسمعه النبي ﷺ من جبريل، وأبلغه رسول الله ﷺ أمته.

وفيه أهمية الكتاب إلى أهل البلدان وأهل الآفاق وتعلميهم، وكذلك أيضاً تصنيف الكتب في العلم، وهذا بحسب حاجة الناس، يكتب العالم في ذلك، وهذا له هدي وسلف، ويكفي في ذلك أن رسول الله ﷺ كان يكتب إلى البلدان، فكتب النبي عليه الصلاة والسلام إلى ملك البحرين، وكسرى، وقيصر، وملك مصر، ودومة الجندل وغير ذلك من البلدان، وكتب النبي ﷺ أيضاً إلى عماله، وكان يكتب ويعطي أصحاب السرايا، وغير ذلك من الكتب التي يريد بها النبي ﷺ التعليم والبلاغ وإقامة الحجة.

فربما يبلغ الإنسان بكتابه ما لا يبلغ بقوله؛ ولهذا ابن الجوزي رحمه الله كان يسمي الكتاب الابن المخلد، يعني: أنه يبقى من إرث الإنسان فينفع الله عز وجل به، وينسب إليه كتاب يبقى ما بقي ما أبقاه الله سبحانه وتعالى إلى أمد الدهر، فينتفع به الناس، فيكون من العلم الذي ينتفع به.

كذلك أيضاً فإن البلاغ في مسألة العلم في الناس ولو لم يكن ذلك بكتاب فإن هذا مما ينفع الله عز وجل به، فيعلم الإنسان الخير تعليماً للناس ولو انقدح في أذهانهم ولو لم يدونوه، فينقله الإنسان إلى ابنه أو أصحابه أو تلاميذه، ثم يوجه التلاميذ إلى من بعدهم، فالله عز وجل يعلم العلم المنقول في الأذهان كما يعلم سبحانه وتعالى العلم المنقول في الكتب، فكم من العلوم موجودة في أذهان الناس لا يعلمون من أين أتت إليهم؟ وإنما تناقلوها كما يتناقلون الكتب المدونة؛ لهذا نقول: إن الله عز وجل يثيب الإنسان على ما يبلغ به الناس، سواء كان بلسانه أو كان بقلمه، وجرى على هذا الصحابة عليهم رضوان الله تعالى بتبليغ الدين سواء كان باللسان أو كان بالكتاب؛ ولهذا نسخ عثمان بن عفان المصاحف، ثم وزعها على البلدان حتى ينتشر، وكان له عظيم الأجر والثواب في هذا، فكانت الأمة إلى اليوم على هذه المصاحف التي نسخها عثمان، لما كان سبباً لها وإن لم يدونها بيده عليه رضوان الله تعالى لكنه كان سبباً في الجمع، وكذلك أيضاً في النسخ كان لها الأثر في نفع الناس وعنايتهم بكلام الله عز وجل تفسيراً، وكذلك أيضاً معرفة لما فيها وما يتضمنها من أحكام وقصص وتوحيد، وكذلك أيضاً جاء عن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى العناية بالعلم بالكتابة للناس، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب، والنبي ﷺ كتب للناس واستكتبوه عليه

الصلاة والسلام.

وهنا يقول: (ورأى عبد الله بن عمر ويحيى بن سعيد ومالك ذلك جائزاً)، يعني: مسألة الكتابة، وكذلك أيضاً المناولة، فحينئذ يقال: حدثني فلان ولو لم يلتق به لأنه كتب إليه، وهنا في مسألة المناولة يستدلون بحديث النبي عليه الصلاة والسلام أنه كتب لأمير السرية كتاباً قال: (لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا)؛ لأنه ناوله هذا الكتاب، ولم يفصح عما فيه ثم لما بلغ مكان كذا وكذا فض ذلك الكتاب ثم قرأ ما فيه، فكان مناولة من رسول الله ﷺ، وهذا على ما تقدم في كتاب النبي عليه الصلاة والسلام للبحرين، وكذلك أيضاً في كتاب النبي ﷺ إلى غيره.

وفي هذا أنه ينبغي للإنسان أن يستوثق لكتابه تحريراً، وكذلك أيضاً تثبيتاً لما فيه من علم حتى لا يزاد فيه ولا ينقص، حتى كذلك أيضاً يثق به الناس، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام اتخذ خاتماً فإن الملوك لا يعتدون إلا بكتب مختومة؛ حتى لا يدخل فيها شيء من التزوير أو التزييف ونحو ذلك فيأخذونها على الجد، ويجب أن يستوثق الإنسان حتى في زماننا، مثلاً في الكتب المطبوعة بتوثيقها مثلاً بنسبتها إليه، أو بوضع أرقام، أو وضع أختام، أو وضع حقوق ونحو ذلك بحيث تثبت أن ثمة مؤلف يعتني بهذا الكتاب، وتحمل على هذا المحمل من التوثيق والعناية والتثبت.

باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلْقة فجلس فيها

قال رحمه الله: [باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلْقة فجلس فيها.

حدثنا إسماعيل، قال: حدثني مالك، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أن أبا مرة مولى عقيل بن أبي طالب أخبره عن أبي واقد الليثي: (أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلْقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه)].

في هذا الحديث إشارة إلى جملة من المسائل منها: أنه ينبغي للإنسان ألا يحجز له مكاناً، وإنما يجلس حيث انتهى به المجلس، وفي هذا ترجم البخاري رحمه الله أن الإنسان يقعد حيث انتهى به المجلس، سواء كان حاضراً في مجلس علم، أو في مجلس عامة، وأما حجز المكان فهذا يورث الإنسان شيئاً من الكبر، وكذلك أيضاً البغي وربما الظلم، ويوغر النفوس في بعضها البعض؛ ولهذا النبي ﷺ وهو من هو في المنزلة لم يتخذ مكاناً له عليه الصلاة والسلام في مجلس إلا في موضع العبادة كمحراب الصلاة ومنبر الجمعة وغير ذلك، هذا ليس لمقام الذات وإنما لمقام البلاغ ومصالح الشرعية.

وأما مسألة الجلوس فكان النبي عليه الصلاة والسلام يجلس كما يجلس أصحابه سواسية؛ ولهذا جاء في الخبر في

صحيح البخاري (لما جاء أعرابي إلى النبي ﷺ والصحابة جلوس، قال الأعرابي: أيكم ابن عبد المطلب –يعني: لا يستطيع أن يميز بينهم، باعتبار أن جلسة النبي عليه الصلاة والسلام كجلستهم، ولبسه عليه الصلاة والسلام كلبسهم– فقالوا: هذا الرجل الأبيض المتكئ على سارية، فجاء إليه فقال: ابن عبد المطلب؟ فقال: نعم)، إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يجلس كما يجلس أصحابه، إذا جلسوا على الأرض يجلس معهم، وإذا رآهم قياماً يقوم معهم، وإذا رآهم متكئين يتكئ معهم، وألا يبرز أمامهم، فإذا كان على موضع من المواضع البارزة فهذا يورث الإنسان شيئاً من الكبر والأنفة عليهم أو نحو ذلك، وهذا من الأمور المذمومة.

وكذلك أيضاً فيما يتعلق بمجالس العلم لا يجلس المعلم في موضع يمتاز عنهم إلا لأجل بلاغ كالمنبر أو المحراب أو غير ذلك في أمور العبادة التي يبلغ بها الناس؛ ولهذا النبي ﷺ وضع منبراً له حتى يبلغ الناس فيراه الناس، يعني: من جهة سماع قوله ونصحه، وكذلك أيضاً مشاهدته، فإن المشاهدة مع الكثرة من الأمور المطلوبة.

وهنا في قول المصنف رحمه الله: (باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها)، يعني: أن الإنسان يلتمس فرجة لنفسه، كذلك أيضاً ينبغي للناس إذا كانوا غير متراصين أن يتراصوا حتى يجد الإنسان الوافد إلى مجالس العلم فرجة، فيحصل لهم الأجر في ذلك.

وفي هذا الحديث أيضاً إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان إذا حضر مجلساً من مجالس العلم ألا يغادره حتى ينتهي، وألا ينصرف فهذا أمارة على عدم المبالاة، وربما يكون شعبة من شعب النفاق، فإذا سمع الإنسان أحداً يتحدث في مجلس بذكر الله سبحانه وتعالى فإنه يتأكد في حقه الجلوس، بل قال بعض العلماء بوجوب ذلك، ولو أن يسمع شيئاً يسيراً، فلو كان منشغلاً يسمع لدقائق ونحو ذلك، كمن لديه من المشاغل، أو لديه من المواعيد ونحو ذلك التي لا يستطيع إخلافها، وأما غيره فعليه أن يجلس حتى ينتهي المحدث، وإذا كان الوقت طويلاً يجلس ولو شيئاً يسيراً يزكي به نفسه بامتثال ذلك الأمر، وكذلك قطعاً للنفس عن الأنفة والكبر بعدم حاجته، لا يوجد أحد من الناس إلا وهو محتاج للعلم، إما جاهل يتعلم أو عالم يذكر، ولو كنت عالماً فإنك تتذكر.

لهذا القرآن كثير منه تكرار من جهة المعنى، ومنه تكرار من جهة اللفظ، فالتكرار من مقاصد الكتاب العزيز حتى يتذكر الإنسان ويعي؛ ولهذا القلوب تصدأ، والأذهان تصدأ أيضاً إذا لم تتذكر، وربما يطرأ عليه شيء من الران إذا بعد عن ذكر الله سبحانه وتعالى واكتفى بما لديه، كمثل هذه الطاولة إذا تركها الإنسان ليومين وثلاثة ولم يمر عليها شيء ينظفها ألا يجد عليها شيء من التراب أو الغبار أو نحو ذلك، نعم فهي بحاجة إلى أن تجلى ولو كانت جميلة وكانت متينة ونحو ذلك، كذلك أيضاً القلوب بحاجة إلى أن يأتي عليها شيء ولو كان معلوماً لديها من قبل؛ حتى تذكر، وحتى تطهر، وحتى تنقى وتصفو وتزكى بتكرار ذلك الحق عليها.

وهنا الثلاثة الذين جاءوا إلى مجلس النبي عليه الصلاة والسلام، منهم من وجد فرجة في الحلقة فجلس فيها، ومنهم من لم يجد ومع ذلك جلس خلفهم، أي أنه تواضع للحق ما تواضع لغير الحق الذي يقوله النبي عليه الصلاة والسلام، وفي جلسة الإنسان

خلف أناس دون أن يكون معهم جالساً فيه نوع من التواضع للحق، والتواضع أيضاً للخلق، فلا يقول أنا لا ينقصني شيء لماذا لا أجد فرجة أو أجلس أمامهم أو نحو ذلك؟ لا، اجلس ولو كنت خلفهم؛ لأنك إنما تستمع للحق لا تستمع لغيره، ولا تخضع ولا تنحني لأحد من الخلق، وإنما تخضع للحق الذي جاء به رسول الله ﷺ؛ ولهذا الثالث الذي وجد في نفسه شيئاً في الجلوس منفرداً خلف الحلقة ولم يجد مجلساً جعله النبي ﷺ جعله معرضاً؛ ولهذا يقول بعض العلماء بوجوب الجلوس في مجالس العلم ولو شيئاً يسيراً؛ حتى لا يوصف الإنسان بالإعراض، إذا دخلت مسجداً ووجدت أحداً من الناس يتحدث بموعظة أو تذكير أو محاضرة أو وجدت الإمام يحدث أو نحو ذلك، فعليك أن تجلس ولو شيئاً يسيراً حتى تخرج من صفة الإعراض، اجلس ولو كنت منشغلاً دقيقة دقيقتين حتى تستوعب شيئاً من العلم، ثم بعد ذلك لتخرج، وإن جلست المجلس تاماً فهذا هو الأولى والأكمل؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام قال: (ألا أخبركم خبر النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله)، يعني: وجد فرجة، (وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه).

باب قول النبي ﷺ: (رب مبلغ أوعى من سامع)

قال رحمه الله: [باب قول النبي ﷺ: (رب مبلغ أوعى من سامع).

حدثنا مسدد، قال: حدثنا بشر، قال: حدثنا ابن عون، عن ابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قعد على بعيره وأمسك إنسان بخطامه – أو بزمامه – قال: (أي يوم هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فأي شهر هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس بذي الحجة؟ قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه)].

وهذا من الأمور المهمة، فإن النبي ﷺ حينما حدث الناس قال: (رب مبلغ أوعى من سامع)، وهذا فيه حث للإنسان أن يبلغ العلم للناس، فربما استنبطوا منه شيئاً من مسائل العلم، واستخرجوا من كنوز المعرفة وغير ذلك ما لا يجده الإنسان، وهذا فيه بلاغ العلم ولو لم يفهمه الإنسان، ربما لا تفهم هذا المعنى لكن تبلغه، فيقوم غيرك ممن جاء بعدك بالاستنباط والفهم والإدراك، وهذا فيه أهمية البلاغ.

والبلاغ على نوعين: بلاغ للعلم بلا فهم، وبلاغ للعلم بفهم، بلاغ للعلم بلا فهم يؤجر عليه الإنسان، ولو جاء الفهم بعد ذلك، فهذا الذي يعتني بطباعة القرآن وطباعة السنة وإعطائها للناس فهو جاهل لا يفقه، لم يؤت شيئاً من الاستنباط، ثم يقوم الناس بالاستنباط والمعرفة وغير ذلك فهذا مبلغ أيضاً؛ لذا نقول لمن يقرأ الحديث على الناس ولا يدرك هذا المعنى: أنت ألقه للناس، ثم الأذهان تقوم بتفتيق العلوم والمعرفة، واستخراج واستنباط المعاني والأحكام من هذا، فـ(رب مبلغ أولى من سامع).

إذاً: كل واحد له رسالة، ربما يؤتى الإنسان من دقة الفهم والنظر والاستنباط ما يستخرج من مسائل الدين ونصوص الوحيين من

كلام الله وكلام رسول الله ﷺ ما لا يستخرجه غيره، ومنهم من هو دون ذلك؛ ولهذا تجد عند المتأخرين من الأئمة من يستنبط من الأحكام ما لا يوجد عند المتقدمين؛ ولهذا نقول: إنه ينبغي للإنسان أن يبلغ العلم ولو كان جاهلاً به، ومن كان جاهلاً بالعلم فإنه يبلغ العلم بلا فهم؛ لأنه إذا تكلف البلاغ بفهم تكلفه بجهل فأبلغ الناس الجهل، وأضل الناس.

إذاً: أمانة بلاغ العلم واجبة على الناس كلهم إذا لم يقم أحد بإسقاط ذلك التكليف؛ فلهذا نقول: الإنسان الذي ليس بعالم ولا يفهم يبلغ النص، ولو كان شيئا قليلاً؛ ولهذا يقول النبي ﷺ كما في الصحيح: (بلغوا عني ولو آية)، حتى يزكي الإنسان ويسقط التكليف عنه، فهذه الآية إذا كنت لا تدرك معناها عليك بتلاوتها للناس ربما استنبطوا منها حكماً شرعياً، ولكن لا تتكلم في استخراج معاني أنت لا تعلم صحتها من خطائها، فربما تعارض ما هو الصريح من كلام الله عز وجل ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، كذلك أيضاً في سنة النبي ﷺ.

ولماذا كان البلاغ واجباً؟ لأنه ما من أحد إلا ويحتاج إليه، فالأب في بيته واجب عليه أن يبلغ أبناءه؛ ولهذا النبي يقول: (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع)، هذا شيء من البلاغ، من الذي يكلف به هل يكلف به إمام مسجد الحي أن يأمر أبناء الناس بالصلاة واحداً واحداً في بيوتهم؟ أم هو تكليف مشترك أول ما يتوجه إلى الآباء قبل غيرهم؟ تكليف مشترك يتوجه إلى الآباء قبل غيرهم، الأم في بيتها يتوجه إليها الخطاب بالبلاغ؛ لهذا نقول: البلاغ على أنواع: بلاغ –على ما تقدم– للعلم بلا إفهام لمن لم يحسن الفهم، وبلاغ للعلم بالفهم لمن أحسن الفهم، وكلما كان الإنسان أعلم كان البلاغ عليه أوجب من جهة تبليغ دين الله سبحانه وتعالى للناس وأداء الأمانة.

ولهذا نقول: إن البلاغ من الأمور المهمة، ومن وجوه البلاغ الحديثة في سماع تسجيل الصوتيات نشرها، ربما الإنسان لا يؤتى علماً ولا معرفة، لكن وفقه وأعانه الله عز وجل على تسجيل الصوتيات ونشرها للناس، كذلك طباعة الكتب ونشرها للناس، وملصقات الحديث النبوي ونشرها بين الناس، كذلك أيضاً خاصة في الوسائل الحديثة في الانترنت وغير ذلك، نشر الأحاديث والصوتيات والدروس والمحاضرات والأذكار وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، هو لم يؤت علماً لكن استطاع أن ينشر، بلغ هذا (فرب مبلغ أوعى من سامع)، ربما يصل إلى شخص يستنبط منها حكماً ينفع الله عز وجل به الناس، ويستخرج من الأحكام والآداب ما لا يوجد عنده.

وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني

العلم يسبق القول والعمل، وكلما كان الإنسان عالماً بالشيء وحقيقته كان أكثر ثباتاً عليه، وأعظم خشية لله عز وجل، ومن أراد الله له الخير فقهه في الدين وأحكامه، وهذا لا ينال إلا بالرحلة إلى العلماء والحضور لمجالسهم والاجتهاد، ثم بعد ذلك يقوم بإرشاد الناس وتعليمهم بالوسائل المختلفة سواء كان بالمقروء أو المسموع، وأن يراعي في ذلك اليسر والرحمة بالناس، وينبغي للعالم أن يسأل الله التوفيق والزيادة في العلم حتى يوفق إلى الخير.

باب العلم قبل القول والعمل

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال الإمام البخاري يرحمه الله: [باب العلم قبل القول والعمل، وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [مُحَمَّد:19] فبدأ بالعلم، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وقال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:28]، وقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:43]، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:10]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:9]، وقال النبي ﷺ: (من يرد الله به خيرًا يفقهه) وإنما العلم بالتعلم، وقال أبو ذر: لو وضعتم الصمصامة على هذه وأشار إلى قفاه، ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها. وقال ابن عباس: كونوا حلماء فقهاء، ويقال: الرباني الذي يعلم الناس بصغار العلم قبل كباره].

هذه الترجمة هي من الأبواب المهمة في كتاب العلم، وهي قول المصنف رحمه الله: (باب العلم قبل القول العمل)، وذلك أن الإنسان لا يصيب الحق إلا بعلم، وإن أصابه فإنه يصيبه إما صدفة أو تقليداً محضاً، والتقليد المحض لا يليق بالإنسان المكلف الذي يفهم الخطاب ويدرك، وكذلك أيضاً يحسن الجواب؛ ولهذا في قوله: (باب العلم قبل القول والعمل) أي: أنه ينبغي للإنسان أن يسبق قوله وعمله تعلم، وهذا التعلم من الإنسان يتفاوت ويتباين بحسب عمله وقوله، أي: أنه يجب على الإنسان أن يكون على بصيرة من أمره قبل عمله وقوله، وفائدة ذلك الأجر والثواب، فأن الإنسان يثاب على قوله وعمله إذا كان عن علم، بخلاف إذا فعل الإنسان ذلك بالمصادفة، أو فعله يظنه عادة، أو يقلد الناس فيه ولا يدري ما مستند ذلك من الشريعة، فإن هذا يضعف جانب التعبد أو يزيله في الإنسان.

وكذلك أيضاً فإن العلم يعطي الإنسان ثباتاً، وهذا الثبات لا يتزحزح عند وجود أو ورود من يتهم الإنسان مثلاً بالخطأ أو المجازفة أو غير ذلك إذا كان لديه مستند من الوحي من كلام الله أو كلام رسول الله ﷺ، كذلك أيضاً فإنه يداوم على ذلك العمل، الإنسان الذي يعمل بلا علم يضطرب أو يكسل، وبمقدار علمه يكون ثباته غالباً؛ لأن العلم بالشيء يؤدي إلى معرفة ماهيته

وحقيقته.

فإذا كان الإنسان يعلم أهمية التوحيد ومقداره، ويعلم أهمية الصلاة ومقدارها، والزكاة ومقدارها، ويعلم أن الصلاة فيها فرائض وفيها نوافل، والنوافل في ذلك على مراتب، ويعلم أيضاً أن الصيام على مراتب: منه ما هو ركن الإسلام، ومنها ما هي نوافل، فهو يثبت على الفرائض؛ لأنه يعلم أنها فرائض، وربما يتساهل بالنوافل لعدم تأكيد الشارع فيها، إذاً: ثباته على العبادة هو فرع عن علمه بقيمتها.

ولهذا نقول: إن الإنسان كلما كان عالماً بالشيء وحقيقته كان أكثر ثباتاً عليها؛ ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:28]، فكلما كان الإنسان عالماً عظمت خشية الله عز وجل في قلبه؛ لأنه يعمل عن تعبد ومعرفة، بخلاف الإنسان الذي يعمل بغير علم فإن خشيته تضعف؛ لأنه قلد أو رأى الناس يقولون ويعملون فقال وعمل؛ وهذا يضعف جانب خشية الله عز وجل فيه، فتجد فيه التفريط لأنه لا يدري لماذا فرط.

أنواع الجهل

ولهذا نقول: إن الجهل على نوعين، كما أن العلم على نوعين، وأقسام العلم والجهل لها اعتبارات، ولكن نقول: إن العلم على نوعين، والجهل على نوعين، أولها: الجهل بحقيقة الشيء، والثاني: جهل بمقداره وترتيبه مع غيره، فإذا جهلت مقدار الشيء ولم تعلم ترتيبه مع غيره وقع لديك شيء من الخلط، والإنسان الذي لا يفرق بين أركان الإسلام وبين بقية الواجبات هذا عالم بحقيقة الشيء جاهل بمرتبته، فيقع التفريط في الإنسان بمقدار جهله؛ لهذا نقول: إن أصل الجهل هو الجهل المركب، والأصل أن الإنسان يجهل حقيقة الشيء، ولكن الجهل الذي تعم به البلوى هو جهل مقادير الأشياء ومراتبها، وهذا هو أكثر ضلال البشرية؛ لهذا كفار قريش ضلالهم هو بسبب عدم العلم أصلاً أم العلم مع عدم معرفة المراتب؟ عدم معرفة المراتب، فهم يعلمون أن الله عز وجل هو الرازق والخالق وهو المحيي المميت سبحانه وتعالى، ولكنهم يجهلون مقدار حق الله عز وجل ومرتبته مع غيره؛ لهذا النبي ﷺ حينما يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويقولون: نحن بنينا البيت، ونحن كسونا الكعبة، ونحن أصحاب سقاية الحاج، هذه عبادات أو ليست عبادات؟ عبادات لكن هل هي أهم من التوحيد؟ لا، التوحيد أهم منها؛ ولهذا قاتلهم النبي عليه الصلاة والسلام، فهم عند أنفسهم أنهم فعلوا شيئاً من الطاعات فكأنهم يقولون: لماذا تقاتلنا؟ يقول: أقاتلكم على التوحيد؛ لهذا قال الله جل وعلا: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة:19]، هل يستوي هذا وهذا؟ لا يستوي.

إذاً: هذا الجهل إنما هو بالمقادير والمراتب، وهذا هو أصل الضلال، يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ

مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:73]، ما سبب هذا الخلط؟ ما سبب عبادة هذه الأصنام من دون الله؟ أكملوا ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج:74]، إذاً: يعلمون من هو الله ولكن ما عرفوا مقداره، فالجهل بمقادير الأشياء ومراتبها له أثر على عمل الإنسان وخلط في معارفه؛ ولهذا الجاهليون إنما أشركوا مع الله عز وجل وهم يعرفون الله سبحانه وتعالى ولكنهم جهلوا مقداره، وعرفوا العبادة وجهلوا مقاديرها، فوقع فيهم الكفر.

وهكذا في كل معلوم إذا جهلت مقداره فرفعته، أو جهلت مقداره فوضعته وقع لديك خلط في بذل وصرف العبادة له، ولهذا الذين يعبدون الأصنام من دون الله يعلمون أنها جمادات ومصنوعة من حجر أو من شجر أو من تمر يعرفون هذا أو لا يعلمون؟ يعلمون، لكنهم جعلوا لها من القيمة والمقدار ما زاد عن حقيقتها، وتفرع عن ذلك أن صرفوا عبادة لها لا تليق بها.

ولهذا نقول: لا بد من تحقق العلم بنوعيه: العلم بمعرفة الشيء، الثاني العلم بمقداره ومرتبته، فتعلم أن الله عز وجل سبحانه وتعالى خالق، وتعلم ما هو مقدار هذا الخالق من جهة ما تصرف له، أيضاً تعلم أن هذا صنم، وتعلم كذلك ما هو مقدار هذا الصنم من جهة قيمته عندك أو نحو ذلك.

التحذير من تقديم المفضول على الفاضل

والإضلال بهذا هو سبب ضلال البشرية، وكذلك سبب ضلال المتعلمين أيضاً، لذا تجد من الناس من يأخذ العلم المفضول ويدع الفاضل لجهله بمقدار الفاضل على المفضول، ومن هنا نقول: إن الجهل بقيم الأشياء ومراتبها هي التي تضل الإنسان وتحرفه عن طريق الحق، فمثلاً: تجد إن كثيراً من الناس أو كثيراً من المتعلمين يتوجهون إلى العلوم ربما لرغباتهم لا بالانصراف إلى حقيقتها، لكن الإنسان يتعلم العلم لرغبته الشخصية أو لحاجة الناس؟ نعم لحاجة الناس؛ ولهذا تجدون حتى في العلم في أمور الناس الدنيوية الإنسان يتعلم بما يحتاجه إليه سوق العمل، يحتاج مثلاً إلى تخصص في الاقتصاد أو في الطب أو نحو ذلك مما فيه عواز، فيقوم الإنسان بالتخصص فيه مع أنه يرغب في علم آخر، لكنه يتوجه إلى رغبته أو إلى حاجة الناس؟ إلى حاجة الناس حتى ينفذ علمه إليهم؛ لهذا الذين يتوجهون إلى علوم الشريعة عليهم أن ينظروا إلى مراد الله عز وجل بحاجة الناس، وأعظم ما أوجبه الله عز وجل على الناس هو توحيده سبحانه وتعالى.

كذلك أيضاً في بذل الدعوة إلى الله عز وجل يجب على الإنسان أن يدعو الناس إلى ما يحتاجون إليه، إذا كانوا قد فرطوا في أمور التوحيد ووقع فيهم الشرك، هل الإنسان يتوجه إليهم بأمور الفضائل وأمور الأحكام وغير ذلك وهو يعلم أنهم مشركون؟ لا، ولو رغبوا ذلك؛ ولهذا كثير من الدعاة إلى الله أو المصلحين أو الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر لديهم خلل في هذا، تجد أنه يعلم الناس الآداب والسلوك، والتعامل مع الزوجة، والتعامل مع الجار، والتعامل مع الغير، أو نحو ذلك، لكنه لا يشير إلى عقائد التوحيد، وربما يخاطب وثنيين، هل هذه الدعوة بالنظر إليها منفردة صحيحة أو ليست بصحيحة؟ صحيحة، لكن إنزالها هو إنزال مفضول على شيء فاضل.

ولهذا ينبغي أن ينظر إلى ذلك بحسب العلم، يتعلم الإنسان، وكذلك أيضاً يبلغ، والعلماء هم ورثة الأنبياء وقد جاء عن النبي

عليه الصلاة والسلام أنه قال (العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)، فشبه النبي عليه الصلاة والسلام العلم بالميراث، وذلك أن الأب إذا توفي يرثه أبناؤه وبناته وزوجه والأقربون إليه، ففي تشبيه العلم بالميراث عدة معاني، من هذه المعاني:

أن أقرب الناس إلى النبي عليه الصلاة والسلام هو أكثرهم نصيباً في الميراث، كما أن أكثر الناس نصيباً من الأب المتوفى أقربهم إليه نسباً كالابن والبنت والزوجة، ثم يأتي بعد ذلك الأبعدون إليه.

كذلك أيضاً فيه إشارة إلى أنه لا يمكن أن يحوز العلم كله أحد؛ لأنه في المواريث منهم من يأخذ النصف، ومنهم من يأخذ الربع، ومنهم من يأخذ الثمن، ومنهم من يأخذ السدس، ومنهم من يشاركه غيره، ومنهم من ينفرد، كذلك العلم لا يمكن أن يحوزه واحد منفرداً من جميع الجهات؛ لهذا نقول: إن الإنسان يستكثر من العلم، وكلما كان أكثر أخذاً للعلم فليعلم أنه أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وأخذ ميراثه ذلك. قال: ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة))، هذا الحديث جاء في مسلمموصولاً من حديث أبي هريرة، وفيه إشارة إلى أن أيسر الطرق إلى مرضات الله وإلى جنته هو العلم؛ لأن العالم يختصر الأجور والثواب ورضا الله بأيسر الأعمال وأخصرها، يعرف فضائل الأعمال وغير ذلك، هذا وجه، وقد جاء في حديث عبد الله بن عباس في مسلم (أن النبي عليه الصلاة والسلام خرج من عند جويرية أم المؤمنين عليها رضوان الله تعالى، وكانت جالسة في مصلاها بعد أذان الفجر، فخرج عليه الصلاة والسلام إلى صلاة الفجر، فما رجع إلا بعد ارتفاع الشمس، فقال النبي لما دخل عليها وهي جالسة في مصلاها: ما زلت في مكانك الذي تركتك عليه؟ قالت: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إني قلت أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت فيما قلت لوزنته –يعني: لفاق عليها– قالت: ما هن يا رسول الله؟ قال: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، ومداد كلماته، وزنة عرشه)، هذه الكلمات يقولها الإنسان ثلاثاً وهي أربع كلمات فتعدل ما يقوله الإنسان في جلوسه مثلاً في مصلاه من غيرهن.

إذاً: هذا فرع عن العلم أم يقوله الإنسان تخرصاً؟ فرع عن العلم.

فإذا عرف الإنسان مواضع العلم الذي يكسب به الأجور العظيمة، فهذا هو موضع التجارة الحقيقية، التاجر الحاذق الذي يضارب في الأسواق هو الذي يربح بالمال القليل مالاً كثيراً، كذلك العامل الذي يعمل الشيء القليل ثم يكسب شيئاً كثيراً هذا يوصف بالحذق والتوفيق، كذلك أيضاً الطائع الذي يعرف الثواب العظيم أجره أعظم.

والمرد بهذا هل الإنسان يعمل العبادة رغبة؟ لا ليس الأمر إلى رغبة الإنسان، بعض الناس يميل إلى نوع من أنواع العبادة وهي عبادة مفضولة، ويدع الفاضلة هذا توفيق له لكنه توفيق قاصر.

وليعلم أيضاً أن من تسويل الشيطان على بعض الصالحين هو أن يرشدهم إلى نوع من العبادات المفضولة إذا وجد في قلوبهم همة لا يستطيع إغلاقها أو دفعها، الشيطان له مداخل على بني آدم حتى على الصالحين؛ لأنه يعامل الناس بحسب أحوالهم، فالعابد الزاهد الذي لديه قوة وطاقة بدنية بالتوجه إلى العبادة والحب فيها هذا لا يستطيع الشيطان أن يصرفه عن ذلك،

ولكن يشغله بالمفضول، حتى لا يصل على الأقل إلى المرتبة العليا، وإنما يصل إلى ما دون ذلك؛ لهذا هل الإنسان يتوجه للعبادات بحسب رغبته واستحسانه وميله لها، أو بحسب استحسان المشرع وتفضيله لها؟ بحسب استحسان وتفضيل المشرع لها ينصرف إليها.

ما هي قيمة العبادة؟ القيمة النفسية أم القيمة الشرعية التي أوجدها الله؟ القيمة الشرعية هي التي ينظر إليها؛ ولهذا كثير من الناس لا يوفقون إلى مثل هذا، فمثلاً النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (من قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)، يقولها الإنسان ربما في دقيقة، هل أثرها هذا صحيح؟ يعني أنها تزيل الذنوب وإن كانت مثل زبد البحر؟ نعم والحديث في الصحيحين، لكن السؤال من الموفق لهذا؟ القضية توفيق أو عمل؟ القضية توفيق؛ ولهذا نقول: ينبغي للإنسان أن يلتمس توفيق الله عز وجل وسداده له في العمل، وكذلك أيضاً في العلم، فإنه كلما ازداد الإنسان علماً ازداد خشية لله عز وجل وذلك لزيادته في العلم والمعرفة، ومعرفته لحكم الله عز وجل وعلله في التشريع، فإنه إذا رأى العلل آمن وصدق، وكذلك خضع وأذعن وسلم واستسلم لله عز وجل وانقاد له، وكذلك أيضاً فإنه يكثر من العبادة ويخشى الله عز وجل ويتقه فإن العبادة سلم إلى غيرها، كلما أكثر الإنسان من العبادة زاد في ذلك من الله سبحانه وتعالى قرباً.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (من يرد الله به خيراً يفقه في الدين) دلالة مفهوم، ويسميها الأصوليون دلالة الخطاب، وذلك أن الفقه هو دليل على إرادة الخير من الله عز وجل لعبده، وأن الله عز وجل إذا لم يرد بعبده خيراً صرفه عن العلم، إذاً: فهي نسبية، كلما ازداد الإنسان جهلاً أراد الله عز وجل به سوءاً، وكلما ازداد الإنسان علماً أراد الله عز وجل به خيراً، وهذا نأخذ منه أنه التلازم بين العلم والعمل.

وكذلك أيضاً قول أبي ذر: (لو وضعتم الصمصامة على هذه، وأشار إلى قفاه، ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لأنفذتها)، يعني: قبل أن تجهزوا علي، وهذا فيه إشارة إلى أن الإنسان ينبغي له أن يبلغ الدين ولو لم يبق من حياته شيء وذلك ليقوم بشيء من العمل، وكذلك أيضاً ليعمل به الناس، والبلاغ في ذلك أيضاً من الأمور المتحتمة.

كذلك أيضاً فإن العلم كما أنه درجات في التلقي فهو كذلك درجات أيضاً في البلاغ، يبلغ الإنسان صغار العلم قبل كباره، ما هي صغار العلم؟ التي يدركها الإنسان ويفهمها، يأتي بدقائق الأمور التي ربما تثقل على مسامع الناس، دقائق الأسماء والصفات والعلل الغيبية الدقيقة لا ينبغي للعالم أن يحدث الناس بها من العامة الذين لا يدركون مواضعها، وإنما عليه أن يبلغهم ما يحتاجون إليه، ينظر إلى الناس إذا كانوا مثلاً يجهلون مثلاً مسائل في أركان الإسلام، وأحكام العقيدة، يبلغهم الأصول العامة، لكن لا يبلغهم مسائل ودقائق العلم البعيدة عنها، والبعيدة عن أفهامهم، وهذا من الحكمة، لذا فإن العالم الرباني هو الذي يضع العلم بحسب حاجة الإنسان، وقد تقدم معنا أن الجهل مرض، النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (إنما شفاء العي السؤال)، فلان يقال: فيه عي، يعني: يشتكي من مرض، كذلك أيضاً الجهل، فالجهل مرض، فإذا كنت عالماً طبيباً جاءك رجل فيه مرض ووباء عظيم ولديه شيء يسير مثلاً من الصداع أو نحو ذلك وأنت تعلم مواضعه هل تعالج الصداع أو تعالج الوباء العظيم فيه؟ تعالج الوباء العظيم، هذا هو الأولى، فلا تدع هذا الأمر لأنه ربما يتفشى فيه، بل تقوم بعلاجه، لذا فأنت

طبيب العقول، كما أن هذا طبيب الأبدان، والذي لا يفرق بين هذا وهذا يعالج الفرعيات ويدع الأمراض العظيمة؛ ولهذا تجد حتى الأطباء إذا رأوا مريضاً فيه أمراض متعددة انصرفوا إلى المرض الأخطر وتركوا غيره، أليس كذلك؟ وربما الإنسان يذهب وفيه مرض ثم يكتشف فيه الطبيب مرضاً أشد ويدع ذاك، يقول: أترك هذا، الآن عندنا مصيبة من المرض الذي تشتكي منه، أليس هذا دليل على الحذق وأداء الأمانة؟.

كذلك أيضاً فإن العالم ينظر في مواضع الجهل، ماذا يجهل الناس؟ يجهل التوحيد، إذاً ندع الفروع، ندع مسائل الأحكام، ندع مسائل الجزئيات والآداب والسلوك حتى نعلمه توحيد الله سبحانه وتعالى، كذلك أيضاً إذا وجدنا عند الناس خللاً في الصلاة نرجئ مسائل الزكاة ومسائل الصيام وغير ذلك، كذلك أيضاً إذا كنت تخاطب أرباب أموال فإنك تخاطبهم بمسائل الزكاة باعتبار أنهم محتاجون إليها، لكن لا تأتي إلى فقراء معدمين يبحثون عن الزكاة تفقههم بمصارف الزكاة، لماذا؟ لأنهم ليسوا من أهل المال؛ ولهذا نقول: إن العالم الرباني هو الذي يعلم الناس العلم بحسب ما يشفي عي الجهل فيهم، وهذا ينظر إليه من جهتين من الجهة الشرعية، وكذلك أيضاً من جهة الموضع الذي يوضع فيه ذلك العلم والجهة الشرعية هي التي وضعت مراتب التشريع ولم تترك للناس.

ولهذا تجد في كثير من وسائل الإعلام سواء الإذاعية أو المكتوبة كالصحافة ونحو ذلك من يهتمون بغرس أشياء مع وجود حاجة للناس في غيرها، فمثلاً في برامج فضائية طويلة جداً تجد للداعية أو للمصلح مئات الحلقات عن السير والآداب والسلوك، ولكنه لم يدع مرة إلى التوحيد، وهو يرى الوثنية قد استشرت في بلدان المسلمين، أو تجد مثلاً من أفحش الكفر وأشده وهو التعدي على ذات الله عز وجل وسبه سبحانه وتعالى، أليس هذا كفر؟ كفر بالله عز وجل، وهو أشد من عبادة الأصنام، وهؤلاء لو عبدوا الأصنام أهون من أن يتعدوا على الله عز وجل بالسب والشتم، وهذا ينتشر كثيراً في بلدان المسلمين، في بلدان الشام والعراق وغيرها، وكذلك أيضاً ربما في بلدان المغرب العربي، ومثل هذا الأمر يحتاج إلى إنكار أو لا يحتاج إلى إنكار؟ يحتاج إلى إنكار، ويحتاج إلى بيان.

لهذا نقول: إن مراتب التعليم ترجع إلى ميزان الشريعة، وميزان حاجة الناس، ولا يعني هذا أننا نهمل جوانب تربية الناس وتعليمهم بالأخلاق الحسنة والأمانة وغير ذلك، ولكن نبدأ بالدعوة الأم وهي التوحيد، والنبي عليه الصلاة والسلام في مكة هل كان يدعو إلى التوحيد فقط أم يجعل معه شيئاً؟ يجعل معه شيئاً؛ ولهذا أبو سفيان(لما سئل: ماذا يدعوكم إليه رسول الله ﷺ؟ قال: كان يدعونا إلى عبادة الله، وإلى الأمانة، والصدق، والعفاف)، هذا في مكة، فأنت أيضاً تدعو إلى توحيد الله عز وجل وتدعو إلى هذه الأمور من الأخلاق، لكن تجعل في المرتبة الأولى جانب التوحيد؛ لأن الشرك يوجد في هؤلاء أكثر؛ ولهذا تجد في القرآن آيات التوحيد والربوبية أكثرها مكية وإلا مدنية؟ أكثرها مكية؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما جاء إلى المدينة كان الناس متمكنين في أمور الإيمان والتوحيد وقبول الحق فاحتاجوا إلى فروع الإسلام، احتاجوا إلى معرفة الصلاة والصيام والزكاة والحج وعقود الأنكحة والبيوع والآداب كأمور الاستئذان وغير ذلك من أحكام الشريعة.

باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا

قال رحمه الله: [باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.

حدثنا محمد بن يوسف، قال: أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: (كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا) .

حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا يحيى بن سعيد، قال: حدثنا شعبة، قال: حدثني أبو التياح، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)].

في هذه الترجمة قال: (باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا)، مراتب تعليم الناس وإرشادهم ودلالاتهم إلى الخير وتخولهم بالموعظة واللطف معهم هذا من الحكمة والسياسة الشرعية وعدم إملالهم، وذلك أن الإنسان مجبول لا على ملل من الخير، لكنه مجبول على الملل بفطرته من كل شيء، فهو ملول؛ ولهذا ينبغي أن يتخول بالموعظة حتى لا ينفر، وقد كان رسول الله ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة.

شرح حديث ابن مسعود: (كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة ...)

يقول: (مخافة السآمة علينا)، قد يقول قائل: كيف يسأم الإنسان من الخير؟ نعم يسأم من الخير، لا لذات الخير، بل لأنه في ذاته مفطور على السآمة، وموجود فيه السآمة والملل من الشيء الدائم؛ ولهذا نقول: إن الإنسان ينبغي أن يتخول الناس بالموعظة حتى لا يملوا ويكرهوا الحق لا لذاته وإنما لكثرة وروده على مسامعهم أكثر مما ينبغي.

وهذا أمر ينظر إليه من جهات:

منها: أن ينظر الإنسان إلى حال المتعلمين، إذا كان هذا الأمر قد استقر لديهم علماً وعملاً لا يحتاج إلى الإكثار منه عليهم، وإنما يعلمهم بين وقت وآخر حتى لا ينسوا، وينوع في هذا الأمر، لكن إذا كان غير مستقر فيهم، بل هم مفرطون فيه هل يقول: لا أريد أن يسأموا؟ لا؛ لهذا النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو كفار قريش إلى التوحيد، ونوح عليه السلام يدعوهم ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً؛ لأنهم ما امتثلوا؛ لهذا يحتاج إلى تكرار ولو سئموا وملوا، ولكن الذي يتوقع منه خشية الإملال هو الذي اتبع وانقاد وسمع فلا تكثر عليه.

كذلك أيضاً ينبغي للإنسان أن يتخول حتى المعرض في المواضع التي يحسن سماعه إليه فلا يؤتى إليه في موضع هو فيه منشغل

الذهن أو غاضب أو نحو ذلك؛ ولهذا نوح عليه السلام خاطبهم في جميع الأوقات لإقامة الحجة، ﴿دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح:5] سراً وجهاراً، يعني: بالإسرار على سبيل الانفراد، يأتيهم واحداً واحداً، يأتيهم في الأماكن العامة، يأتيهم في الليل ربما كانوا منشغلين بكسب الرزق في النهار، يأتيهم في النهار، ربما يكونون في الليل يحتاجون إلى النوم والراحة والدعة أو يسمرون أو نحو ذلك، فنوع في تلك الأوقات حتى يقيم الحجة عليهم.

كذلك أيضاً فإنه ينظر إلى حال الناس من جهة التخول بحسب ما يرد عليهم من مقاومة ذلك الخير، في زماننا كثرت مطارق الشر على الناس، وفي وسائل الإعلام أصبح يغزو الإنسان في كل موضع حتى في طريقة، كان في السابق وسائل الإعلام ربما لا يكون مع الإنسان شاشة التلفاز في منزله، الآن في هاتفه النقال، في أي مكان، ربما تكون شاشات المتابعة والتلفزة في أجهزته النقالة فيرى في كل مكان، إذاً: ينبغي أن يؤتى الخير تعليماً ومقاومة أيضاً للشر، كما يسهب الشر يسهب في أمر الخير، ولا يقال تكون كما كان النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا عبد الله بن مسعود كان يتخول أصحابه ولا يخرج إليهم إلا كل خميس؛ لأنه يخشى السآمة عليهم، ولكن في ذلك الزمن الذين كانوا فيه، ذلك الزمن لا يوجد انفتاح للشر، ولو وجد انفتاح لزاد عبد الله بن مسعود، لماذا؟ حتى لا يتأثروا بالشر الوارد إليهم؛ ولهذا نقول: إذا زاد الشر يزيد الخير، وهذا من الحكمة والسياسة في أمر المدافعة، ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة:251]، وإذا وجد الناس في غفلة، بعيدون مثلاً عن الشر، ولا يوجد لديهم مثلاً إسهاب في تلقي الشر يخفف عليهم؛ لأن الإنسان يداوي ويقاوم، كما يداوي الطبيب أمراض الأبدان التي ترد عليه أو تستشري كذلك أيضاً يداوي جهل الإنسان في عقولهم وقلوبهم.

شرح حديث أنس: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)

والنبي عليه الصلاة والسلام لما بعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن قال عليه الصلاة والسلام لهما: (يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا)، وكذلك أيضاً في حديث أنس بن مالك عليه رضوان الله تعالى هنا أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالتيسير ونهى عن التعسير، وحث على التبشير لا التنفير.

وهنا نقول: إن التيسير المراد به هو التيسير الذي يسر به النبي عليه الصلاة والسلام، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:185]، إذاً: أصل الشريعة تيسير، فالإرادة المذكورة في قول الله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة:185] هي الإرادة الشرعية، أي: أن أصل الشريعة يسر وسماحة؛ ولهذا يقول النبي عليه الصلاة والسلام كما جاء في حديث عبد الله بن عباس: (إنما بعثت حنيفية سمحة)، وهل التيسير ذوقي وحسي –يعني: بذوق الإنسان وحسه– أم هو شرعي؟ الأصل فيه أنه شرعي لا إلى ذوق الإنسان، ولو كان إلى ذوق الإنسان لقال: والله صلاة الظهر أربع اليسر أن تكون اثنتين اليوم، هذا تيسير حسي وذوقي خاص بالإنسان أم بالشريعة؟ خاص بالإنسان لهذا لا يصح مثل هذا الأمر،؛ وكثير من الناس يستعملون مصطلح اليسر بالدين وفق أذواقهم لا وفق الشريعة، ويستعملون الوسطية وفق أذواقهم لا وفق الشريعة، ويتعاملون مع الوسطية بمفهوم يختلف عن مراد الله عز وجل ومراد رسول الله ﷺ، تقول عائشة عليها رضوان الله تعالى: (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً) إذاً: اليسر المراد بذلك هو اليسر في المسائل الشرعية أو في

أمور الناس الدنيوية؟ أمور الناس الدنيوية، لذا قال: (ما لم يكن إثماً)، يعني: ما لم يدخل في حمى الشريعة، أما إذا دخل في حمى الشريعة فلا، ولو كنت في ذاتك ترى أنه عسر عليك أن تمتثل وأن تعلم أن الله أراد بك خيراً.

فمثلاً: قد يرى الإنسان الحدود وتطبيقها فيقول هذه مشقة وعسر، لكن نقول: عليك أن تقوم بها وأن تمتثل لأنها يسر وأنت لا تعلم، يسر بالأمة ورحمة بها؛ ولهذا الله عز وجل جعل القصاص حياة أو جعله موتاً؟ جعله حياة للأمة به تحيا النفوس وتعصم وتحفظ الكرامات وغير ذلك، ولهذا نقول: إن مثل هذه الأمور ينبغي للإنسان أن ينظر إليها بمنظار الشريعة لا بمنظار نفسه.

كذلك أيضاً مفهوم الوسطية ينظر إليها كثير من الناس من جهة حسه، أو ينظر للوسطية على أنها وسطية هندسية، يأتي بين فكرين ويقول أنا متوسط، ربما أنتم الثلاثة كلكم يمين أو كلكم يسار، لكن الوسطية الصحيحة رسمها رسول الله صلى لله عليه وسلم، ومن الأخطاء أن ينتشر مثلاً في بلد من البلدان فكران، ثم يأتي الإنسان بينهما ويقول أنا وسطي.

في مكة في زمن النبي عليه الصلاة والسلام كان هناك كفار قريش الذين يحاربون النبي عليه الصلاة والسلام، وكان منهم من يود النبي عليه الصلاة والسلام ولم يكن معه في دعوته وهو أبو طالب، أبو طالب في هذا المقياس – المقياس الهندسي – وسطي أو ليس بوسطي؟ وسطي، وسطية ضلالة أو وسطية هداية؟ وسطية ضلالة، هذه وسطية هندسية، يقول ما هذه الأفكار الموجودة في البلد فيه فكر كذا، وفيه فكر كذا، تعالوا في النصف، هذا صحيح أو ليس بصحيح؟ لا، ليس بصحيح، الوسطية هي التي رسمها الله عز وجل وانتهى أمرها، وهي في كلام الله عز وجل وفي كلام رسول الله ﷺ؛ ولهذا الوسطية لا يبحث عنها، وإنما تتبع؛ لأن الله عز وجل رسمها، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6] ما هو الصراط المستقيم؟ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:7]، وهو الذي رسمه الله جل وعلا؛ لهذا قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:143] من الذي جعلك وسطاً؟ هل جعلت نفسك أم الله؟ الذي جعلك وسطاً هو الله، أين جعلك؟ في الشريعة في الكتاب والسنة؛ ولهذا نقول: إن الوسطية وسطية شرعية، والتيسير هو تيسير شرعي هو الذي أراده الله سبحانه وتعالى.

قد يجد الإنسان في قلبه شيئاً من الكره أو البغض عند إقباله على الأحكام الشرعية، فمثلاً: حينما تقوم في يوم بارد وتتوضأ ألا تجد كرهاً وتثاقلاً أن تتوضأ بالماء البارد؟ لكن النبي عليه الصلاة والسلام جعله من أعمال البر كما في حديث أبي هريرة قال: (وإسباغ الوضوء على المكاره)، يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:216]، ومع ذلك سئل النبي عليه الصلاة والسلام: (ما أفضل الأعمال وأحبها إلى الله؟ قال: الإيمان بالله. قال: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله)، كيف يكون أفضل الأعمال والإنسان يكرهه؟ نقول: لا يكرهه، وإنما المراد أن الإنسان ينقبض منه؛ لأنه يحب الحياة، لا يحب مفارقة الأهل والأموال وغير ذلك؛ ولهذا نقول: إن هذا الأمر النزعة النفسية في ذات الإنسان لا يؤاخذ عليها، وإنما يؤاخذ إذا تكلم بها، فقال أنا كاره للشريعة أو لا أحبها، ولكن الواقع أنه يقوم بالامتثال ويقول: سمعنا وأطعنا؛ لذا لا يؤاخذ بهذا الذي في نفسه.

كذلك المرأة تكره أن يتزوج عليها زوجها أم لا؟ تكره أن يتزوج عليها زوجها، هذا فطري أو ليس بفطري؟ فطري، تؤاخذ على هذا أو لا تؤاخذ؟ لا تؤاخذ، متى تؤاخذ؟ تؤاخذ إذا قالت: أنا أكره هذه الشريعة كلها؛ ولهذا تجد المرأة المؤمنة تكره أن يتزوج عليها زوجها، وإذا أريد منها أن تخطب لرجل متزوج ذهبت تخطب؛ لأنه ليس عليها، إذاً: لا تكره الشريعة في ذاتها إنما تكره على نفسها؛ ولهذا نقول: هذا الشيء الفطري الذي في ذات الإنسان لا يؤاخذ عليه ما لم يفصح عنه أنه يكره ذلك التشريع.

ولهذا نقول: إن اليسر هو الذي أراده الله سبحانه وتعالى، كذلك أيضاً من مفاهيم اليسر في الشريعة هو التدرج في إفهام الناس للشريعة، تأتيهم بشيء يسير حتى يتدرجوا في ذلك؛ لهذا النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له عليه الصلاة والسلام: (إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه) ماذا؟ (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة)، هل جاء بها على سبيل الإجمال أم جاء بها على التدرج؟ ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام قال: (فليكن ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)، جاء في رواية البخاري في كتاب التوحيد: (إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أجابوك لذلك)، يعني: لا تعطيهم الثاني حتى تنظر ماذا يفعلون، يعني: لا تكثر عليهم، وإنما تعال على التدرج، فهذا التدرج من أمور التيسير للناس؛ ولهذا يقول عمر بن عبد العزيز: إنك ما علمت الناس الإسلام جملة إلا تركوه جملة.

فلا تأتِ إلى شخص ملحد لا يعرف دين الله عز وجل ثم تقول: يجب عليك أن تصلي الصلوات الخمس، والسنن الرواتب اثني عشر، وقيام الليل إحدى عشر، وتصوم شهراً كاملاً ولا تأكل من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وأخرج من مالك اثنين ونصف بالمائة كل سنة، وعليك الجهاد في سبيل الله، وتعطيه من الأحكام الشريعة، ألا ينقبض؟ ينقبض.

لكن ما لا يقبل التدرج في هذا ما هو؟ التوحيد، فالتوحيد لا يقبل التدرج، (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)؛ ولهذا جاء رجل للنبي عليه الصلاة والسلام فقال: (يا رسول الله إني أريد أن أسلم، قال: أسلم ما الذي يمنعك. قال: إني أجدني كارهاً)، هل قال نصف التوحيد؟ أم قال: (أسلم ولو كنت كارهاً)؟ لهذا نقول: إن التوحيد لا يقبل التجزئة، لا بد أن يأتي به الإنسان كاملاً، وباب التوحيد ليس فيه يسر؛ لأنه هو يسر في ذاته، ليس فيه يسر نفسي وعاطفي، وليس فيه تدرج في ذلك؛ ولهذا نقول: قد يعيش الإنسان في الضلال ويظن أنه استأنس بذلك، وهو على ضلالة أوليس على ضلال؟ على ضلال لذا ينبغي أن ترحمه وأن ترأف به حتى يأتي إلى الحق شيئاً فشيئاً، لكن هل يعني أن الإنسان إذا استأنس وارتاح إليه أنه حق؟ لا يلزم هذا، وهل نفرة الإنسان من شيء يدل على أنه باطل؟ لا، لا يلزم هذا، الإنسان إذا كان في حجرة مظلمة شهر ألا يتألم من النور أو لا يتألم منه؟ يتألم من النور وينفر منه، هل يعني أن الظلام خير من النور؟ لا، لكن نقول: تأخذ بيده شيئاً فشيئاً اخرج معي، كذلك القلوب حين تخرج من ظلم الشرك وظلم الجاهلية تجد قبولاً منه ونفرة من نور الحق؛ لهذا القلوب يرد لديها الأنس من الظلمة، والوحشة من النور، فينبغي للإنسان أن يرأف بأولئك الخلق؛ ولهذا النبي ﷺ يقول: (أسلم ولو كنت كارهاً)، يعني: هذا الكره سيزول، اخرج إلى النور ثم ترى.

باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة

قال رحمه الله: [باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة.

حدثنا عثمان بن أبي شيبة، قال: حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل قال: كان عبد الله يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا].

هذا تقدم الكلام عليه في الباب السابق.

باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين

قال رحمه الله: [باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

حدثنا سعيد بن عفير، قال: حدثنا ابن وهب، عن يونس عن ابن شهاب، قال: قال حميد بن عبد الرحمن: سمعت معاوية خطيباً يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله)].

وهذا كذلك أيضاً تقدم معنا في الباب قبل السابق في مسألة الخيرية، وأن الله عز وجل كلما أراد بعبده خيراً زاد من توفيقه وتسديده إلى العلم، وإذا أراد الله عز وجل به شراً جعله يوغل في أبواب الجهالة.

باب الفهم في العلم

قال رحمه الله: [باب الفهم في العلم.

حدثنا علي، حدثنا سفيان قال: قال لي ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: صحبت ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعه يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً، قال: (كنا عند النبي ﷺ فأتي بجمار فقال: إن من الشجر شجرة مثلها كمثل المسلم. فأردت أن أقول هي النخلة، فإذا أنا أصغر القوم فسكت، قال النبي ﷺ: هي النخلة)].

والجمار: هو قلب النخلة، وهو يؤكل ويطعم ويستلذ، وكان يتحلى به الناس، وفي هذا الحديث فضل الفهم، وأن الفهم قد يؤتاه الإنسان صغيراً، ولا يلزم من ذلك أن يكون الإنسان كبيراً، فقد يوفق الإنسان إلى شيء من الفهم والإدراك والاستنباط وهو صغير، كما وفق عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالى إلى شيء من فهم بعض مسائل الدين لم يفهمها غيره، كذلك أيضاً الفهم

يتجزأ قد يفهم الإنسان مسألة وهو دون غيره، ولا يعني هذا تفوقاً في غيره من أبواب العلوم، فهناك من الصحابة من هم أفقه من عبد الله بن عمر كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب والعلية من كبار الفقهاء، منهم من يتمايز أيضاً في بعض الأبواب دون بعض كعائشة عليها رضوان الله تعالى لتبصرها وفقهها في أحكام النساء، فإنها تتقدم على كثير من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى في هذا، منهم من يتبصر ويكون فقيهاً أيضاً في أبواب الفرائض كزيد بن ثابت، منهم من هو فقيه في الحلال والحرام كمعاذ بن جبل، ومنهم من يفقه في مسائل البيوع والمعاملات وغير ذلك، فهذه أبواب ينظر فيها بحسب أهل الاختصاص، قد يؤتى الإنسان في باب ولا يؤتى في الآخر، ويؤتى في أكثر الأبواب ولا يؤتى بها جميعاً.

باب الاغتباط في العلم والحكمة

قال رحمه الله: [باب الاغتباط في العلم والحكمة، وقال عمر: تفقهوا قبل أن تسوّدوا، قال أبو عبد الله: وبعد أن تسودوا، وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم.

حدثنا الحميدي، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثني إسماعيل بن أبي خالد على غير ما حدثناه الزهري قال: سمعت قيس بن أبي حازم، قال: سمعت عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)].

هذا أيضا فيه إشارة إلى أن أفضل ما يسعى إليه هو العلم؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام قال: (لا حسد إلا في اثنتين)، يعني: لو كان الحسد يجوز لجاز في هذا، ويحتمل أن المراد بذلك الغبطة، ويغبط الإنسان غيره على ما يوفق إليه ويتمنى أن يكون مثله؛ ولهذا نقول: إن الحسد: هو تمني زوال النعمة عن المحسود، وأما الاغتباط: فهو تمني المماثلة مع عدم زوال النعمة عنه، أو تمني الزيادة عليه مع عدم حرمانه مما هو عليه من توفيق، والمصنف رحمه الله هنا كأنه فسر الحسد في الحديث في قوله: (لا حسد إلا في اثنتين) يعني: لا اغتباط له قيمة وكرامة إلا في هذين الأمرين باعتبار العلم، وكذلك أيضاً الإنفاق في سبيل الله عز وجل.

وقول عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى: (تفقهوا قبل أن تسودوا)؛ لأن الإنسان إذا انشغل وساد، سواء كانت ولايته صغرى، أو كبرى، فالولاية الصغرى أن يتولى الإنسان على زوجة وذرية وينشغل بالإنفاق، أو بالعمل، أو ربما أيضاً يتولى على تجارة أو عمال ويكون لديه مثلاً انشغال في هذا الباب، أو يتولى ولاية كبرى مثلاً على بلد أو قرية أو إدارة أو مدرسة أو غير ذلك هذا نوع من الولايات التي تشغل الإنسان؛ ولهذا قال: (تفقهوا قبل أن تسودوا) وفي هذا إشارة وتنبيه إلى أنه ينبغي على الإنسان أو الوالد أو المعلم أن يربي الناس في زمن انشغالهم وتفرغهم، وينبغي أيضاً على ولي الأمر أن يحرص على هذا الأمر من أبنائه وبناته ومن يلي أمره بتعليمهم قبل توليهم الأمر؛ لأنهم سينصرفون إلى أمر القيادة، والقيادة يلزمها عمل، فإذا لم يعمل على علم لم يوفق إلى الصواب غالباً، وكذلك أيضاً فإن الإنسان في فراغه يتحصل على العلم والذهن صافٍ، وإذا لم يكن الذهن منشغلاً بشيء من الصوارف الدنيوية فهو أقرب إلى الحفظ، وأقرب إلى الفهم، وأدرك أيضاً في مسائل الاستنباط.

باب ما ذكر في ذهاب موسى ﷺ في البحر إلى الخضر

قال رحمه الله: [باب ما ذكر في ذهاب موسى ﷺ في البحر إلى الخضر. وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:66] .

حدثني مُحَّد بن غرير الزهري، قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثني أبي، عن صالح، عن ابن شهاب حدث أن عبيد الله بن عبد الله أخبره عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر، فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لقيه، هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه؟ قال نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله إلى موسى بلى عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، وكان يتبع أثر الحوت في البحر، فقال موسى لفتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:63-64] فوجدا خضراً، فكان من شأنهما الذي قص الله عز وجل في كتابه)].

في هذا استحباب الرحلة في العلم، والانتقال من موضع لا يجد فيه الإنسان عالماً، أو يجد مثلاً في بلد آخر من هو أعلم ممن هو في بلده، ففي ذلك فوائد عظيمة: منها مصاحبة العالم، والاقتداء به، والتأسي بما لديه من علم ومعرفة وخلق وأدب، وكذلك أيضاً طريقة التعليم، فالإنسان لا يكسب مجرد العلم فقط، بل يكسب أيضاً الأدب والسلوك وكذلك أيضاً الرحمة واللطف بالمتعلمين ونحو ذلك، وإلا فالعلم قد يجده الإنسان في كثير من البلدان إلا أن الرحلة في ذلك من الأمور المهمة، وقد رحل كثير من أصحاب رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ للجلوس عنده، وجلهم أخذ الإسلام منه، وإن كان معظمهم لم يرحلوا إليه للتلقي والمداومة عنده، لكن لا يخلو أن منهم من رحل إلى رسول الله ﷺ وأخذ منه التوحيد، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، وأكثرهم أخذوا من رسول الله ﷺ وأقاموا لديه، ولو كان شيئاً يسيراً، فجالسوا رسول الله ﷺ وأخذوا منه، ومنهم من اكتفى بمجرد أخذ الأصول، ثم تلقوا عنه بعد ذلك بواسطة.

ولهذا نقول: إن الارتحال إلى العالم والأخذ منه هذا من الأمور المهمة، فلهذا موسى عليه السلام مع ما لديه من علم، ومع ما وفق إليه من وحي الله سبحانه وتعالى عليه إلا أن ذلك لم يمنعه من الارتحال والأخذ عن غيره، فارتحال الإنسان من الأمور المستحبة التي تزكو بها النفوس ويستزيد بها الإنسان علماً؛ ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ [الكهف:66]، يعني: أن العلم في ذاته هو نعمة من الله عز وجل، لا يكون شيئاً ذاتياً قائماً في الإنسان، بل هو من توفيق الله عز وجل وتسديده.

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يعلم أن العلم الذي أعطاه الله عز وجل إياه هو من غيره، فكما جاءك من غيرك

فعليك أن تصرفه إلى غيرك، فهو ليس شيئاً ذاتياً قائماً في نفسك، فينبغي عليك أن تؤدي زكاة العلم بالبلاغ كزكاة المال بالإنفاق، وأما العلم فهو بالبلاغ، ورحل غير واحد من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام إلى بعض الصحابة، كما ارتحل جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس حيث ارتحل في ذلك مسيرة شهر كامل في سماع حديث واحد، وجرى الأئمة عليهم رحمة الله على الارتحال من بلد إلى بلد، فارتحل الإمام الشافعي رحمه الله إلى عدة بلدان، ارتحل إلى مكة مرتين، وارتحل إلى اليمن، وارتحل وجلس وعلم فيها، ثم ارتحل إلى العراق، ثم ارتحل إلى مصر، كذلك أيضاً الإمام مالك رحمه الله ارتحل إلى مكة أكثر من مرتين، وكذلك الإمام أحمد رحمه الله ارتحل إلى مكة، وارتحل أيضاً إلى اليمن، وارتحل إلى غيرها من بلدان الإسلام، نقول: إن مثل هذه الرحلة من الأمور المهمة التي يستزيد فيها الإنسان علماً وأدباً وتربية.

باب قول النبي ﷺ: اللهم علمه الكتاب

الملقي: [باب قول النبي ﷺ: (اللهم علمه الكتاب) .

حدثنا أبو معمر، قال: حدثنا عبد الوارث، قال: حدثنا خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ضمني رسول الله ﷺ وقال: (اللهم علمه الكتاب)].

في هذا فضل عبد الله بن عباس عليه رضوان الله، وذلك بدعاء النبي عليه الصلاة والسلام له؛ ولهذا أصبح عليه رضوان الله تعالى حبر هذه الأمة، وأيضاً إمام من علية أئمتها في تأويل كلام الله سبحانه وتعالى، فكان بصيراً بصراً لا يكاد يوازيه في ذلك أحد حتى من أصحاب رسول الله ﷺ، فكان عبد الله بن عباس يقدمه عمر بن الخطاب عليه رضوان الله على كثير من كبار الصحابة وفقهائها، وهذا من بركة قربه ودعاء النبي عليه الصلاة والسلام له، في هذا أيضاً أهمية الدعاء والالتجاء إلى الله في طلب الاستزادة كما تقدم في قول الله جل وعلا لنبيه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114]، يتضرع بين يدي الله بأن يكثر بالدعاء من الزيادة بالعلم والمعرفة، كذلك أن يطلب ممن يحسن الظن به بقربه من الله عز وجل من أهل العبادة والديانة أو الوالدين بأن يدعوا له بالتوفيق والسداد في أبواب العلم فهذا من الأمور الحسنة، وفيه أيضاً ضم الإنسان للصبي سواء كان ذلك عند دعائه، ففي ذلك نوع من القرب منه، فعبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى كان غلاماً كما جاء في حجة الوداع، وهي قبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بضعة أشهر، وكان قريباً من الاحتلام أي لم يحتلم؛ ولهذا جاء في حديث عبد الله بن عباس كما في الصحيح قال: (وأنا قد ناهزت الاحتلام). يعني: قاربت الاحتلام، ولعله يأتينا بإذن الله عز وجل في هذا الكتاب، أو ربما في الحديث الذي يليه، وفي هذا أيضاً من المسائل المهمة في ذلك أن الإنسان ربما يكون من أهل الاختصاص في علم من العلوم أكثر من غيره، ولا يعطل غيره مع فقه عبد الله بن عباس وبصيرته بعموم مسائل الدين إلا أنه كان من أهل الاختصاص بالتفسير، فكان حبر الأمة في التأويل.

باب متى يصح سماع الصغير

قال رحمه الله: [باب متى يصح سماع الصغير.

حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، قال: حدثني مالك، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن عباس قال: أقبلت راكباً على حمار أتان، وأنا يومئذٍ قد ناهزت الاحتلام، ورسول الله ﷺ يصلي بمنى إلى غير جدار، فمررت بين يدي بعض الصف، وأرسلت الأتان ترتع، فدخلت في الصف فلم ينكر ذلك علي.

حدثنا مُحَّد بن يوسف، قال: حدثنا أبو مسهر، قال: حدثنا مُحَّد بن حرب، حدثني الزبيدي، عن الزهري، عن محمود بن الربيع، قال: (عقلت من النبي ﷺ مجة مجها في وجهي وأنا ابن خمس سنين من دلو)].

قول المصنف رحمه الله: (باب متى يصح سماع الصغير) فيه على ما تقدم تعليم الصغير في صغره، وذلك أنه أثبت في علمه وأخلى لقلبه، وكذلك أيضاً فإنه أبرء له من التأويل الباطل، فإن نزوة الصبي شبه معدومة، والميل أيضاً إلى الهوى والطمع سواء كان في المال أو الجاه أو السيادة هذا شبه معدوم في الصغير، فيتلقى العلم ويرسخ فيه نقياً صافياً لا يقوم بتأويله وحرفه؛ ولهذا من أخطر الأشياء على الحق هي المطامع من المال والجاه كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام؛ لهذا نقول: تعليم الصبي في صغره يأخذ العلم نقياً ولا يقوم بتلويثه بشيء من الشهوات أو بشيء من الشبهات، فيأخذه نقياً ثم يرسخ فيه ويتجذر، ثم بعد ذلك يصعب عليه أن يقوم بحرفه لنقائه وصفائه؛ ولهذا قلما يتعلم الإنسان العلم وهو صغير ثم يقوم بحرفه عن ظاهره إلى شيء من الشهوة أو الشبهة.

وفي قول المصنف (باب متى يصح سماع الصغير) نقول: هذا من مواضع الخلاف عند العلماء، فمن العلماء من يفرق بين التحمل والأداء، فيقول: إن الأداء لا يصح إلا ممن كان بالغاً، أما بالنسبة للتحمل فإنه يؤخذ من الإنسان إذا تحمل ولو كان صغيراً، وهذا كذلك أيضاً نقول فيما هو أبعد من ذلك أن التحمل يقبل من الإنسان ولو كان كافراً؛ لهذا أبو سفيان في بعض الوقائع المكية كان يرويها عن النبي عليه الصلاة والسلام، وكان في زمن كفره قبل دخوله الإسلام، ثم حدث بها بعد إسلامه، فالتحمل في هذا مغتفر، ولكن الأداء لا بد أن يؤدي وهو بالغ يجري عليه التكليف باكتمال العقل؛ حتى لا يتجرأ على شيء من الخطأ أو الوهم، أو مثلاً بتعمد التغيير أو نحو ذلك؛ لهذا نقول: إن التحمل من الصغير صحيح، وأما الأداء فلا يصح منه حتى يبلغ؛ ولهذا النبي ﷺ علم الصغار بشيء من الأحكام، وهذا شيء من التحمل، وأما الأداء فلم يدعهم النبي عليه الصلاة والسلام إلى شيء من أداء العلم؛ لأنهم صغار وذلك حتى بلوغهم.

كذلك أيضاً فيه ضم النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عباس ودعاؤه له بالتعلم، دعا له بالتعلم لا بالبلاغ؛ لأنه لم يتحمل تكليف البلاغ لصغر سنه، كذلك أيضا لحاجته في مثل هذا الزمن.

كذلك أيضاً فيه حسن مداعبة النبي عليه الصلاة والسلام للصغار، وكذلك أيضاً تلطفه معهم ودعاؤه لهم عليه الصلاة والسلام، وقد جاء في ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام جملة من أنواع المداعبة للأطفال منها المج كما في هذا الحديث، منها أنه كان يدلع لسانه يخرجه لهم، ومنه أيضاً أنه كان عليه الصلاة والسلام يرتحله الحسنوالحسين، ومنها أيضاً ما يحمل عليه الصلاة والسلام كأمامة وهو يصلي، فإذا ركع وضعها وإذا قام حملها، وغير ذلك من أنواع المداعبة والملاطفة للصغار.

باب الخروج في طلب العلم

قال رحمه الله: [باب الخروج في طلب العلم، ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد.

حدثنا أبو القاسم خالد بن خلي، قال: حدثنا مُحَمَّد بن حرب، قال: قال الأوزاعي: أخبرني الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى، فمر بهما أبي بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه؟ فقال أبي: نعم، سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه يقول: (بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: أتعلم أحدا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى عبدنا خضر، فسأل السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان موسى ﷺ يتبع أثر الحوت في البحر، فقال فتى موسى لموسى: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف:63] قال موسى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:64] فوجدا خضراً فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه)].

تقدم الكلام معنا على استحباب الرحلة وفضلها في العلم، وكذلك أيضاً ما جاء عن السلف الصالح في ذلك من الارتحال من بلد إلى بلد أو قصد فرد بعينه، وفيه ارتحال جابر بن عبد الله لسماع حديث واحد في مسيرة شهر، هذا فيه عبرة، وأيضاً قدوة لمن يطلب العلم ولو كان يسيراً؛ لأنه يطلب شيئاً عظيماً، خاصة إذا كان ما يطلبه هو الوحي، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام من طرق متعددة: (اطلبوا العلم ولو في الصين)، هذا الحديث جاء من عشرات الطرق، ولكنه ضعيف.

باب فضل من عَلِم وعَلّم

قال رحمه الله: [باب فضل من عَلِمَ وَعَلَّمَ.

حدثنا مُحَمَّد بن العلاء، قال: حدثنا حماد بن أسامة، عن بريد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك

ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) قال أبو عبد الله: قال إسحاق: وكان منها طائفة قيلت الماء].

وهذا في فضل علم من علم وعلم، وذلك أن الإنسان إذا علم غيره الخير فإن الأجر في ذلك يبقى ما بقي العلم وبقي العمل، وهذا فضل الله عز وجل يؤتيه من يشاء، كثير من الناس الذين وفقهم الله عز وجل إلى العلم ووفقهم إلى البلاغ بقي ذلك العلم ينتفعون به بعد موتهم، والأئمة الذين بلغوا الدين بعد النبي عليه الصلاة والسلام كان لهم الأجر بقدر بلاغهم، وكل الأمة التي تعمل بالعبادة وشيء من القربى فأجرها يأتي لرسول الله ﷺ؛ لأنه بلغ العلم، كذلك أيضاً الصحابة بمقدار تبليغهم يلحقهم في ذلك الأجر من هذا النوع.

ولهذا كم من الأمة يصلون ويزكون ويصومون ويحجون ويسبحون ويهللون ويتصدقون وغير ذلك من أعمال البر إنما أجرها لمن بلغه، لا تعلم أنت من بلغها لكن الله عز وجل يعلمه، من أين أتت؟ ما هي الواسطة؟ ما هي السلسلة العريضة التي بينك وبين النبي عليه الصلاة والسلام؟ إن كنت تغفل عنها فالله عز وجل يعلمها، ويؤتي كل واحد أجره، وبمقدار الأتباع وانتشار العلم يكون الأجر؛ ولهذا العلماء الصادقون في هذا الأمر يتقدمون غيرهم يوم القيامة بمقدار بلاغهم للناس.

وهنا شبه النبي عليه الصلاة والسلام الإنسان، والعلم أنه بحال الغيث، وهذا فيه إشارة إلى أن الإنسان إذا كان عالماً أو داعية إلى الله عز وجل يتنقل بحسب مواضع العلم، لا بحسب رغباته النفسية وحاجته، أو في الموضع الذي يصدر فيه، أو يكون وجيهاً، أو نحو ذلك لا، بل بحسب مواضع البلاغ، النبي عليه الصلاة والسلام ترك مكة وهي أفضل من المدينة أوليس كذلك؟ أفضل، وهي أحب البقاع إلى الله، انتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة؛ لأنها أخصب لقبول الحق؟ فأرض العالم هي التي يجد فيها قبولاً لعلمه لا قبولاً لدنياه ونحو ذلك؛ لهذا ينبغي عليه أن يصبر ولو كان بعيداً، النبي عليه الصلاة والسلام ما خرج من مكة وهو يرغب في نفسه المتجردة بالخروج منها، وإنما كان يريد البقاء فيها، ولكن لما تعذر قبول كفار قريش للحق ارتحل إلى المدينة.

ولهذا نقول: إن رسول الله ﷺ هو أول المرتحلين في تبليغ الحق من هذه الأمة، فيجب على العلماء من ورثته أن يسلكوا طريقه لتبليغ الناس والذهاب إليهم كما كان النبي عليه الصلاة والسلام يصنع، لما استعصى عليه كفار قريش في قبول الحق يذهب إلى أمراء القبائل، ويقول: (ألا من يحملني لأبلغ كلام ربي)، يعني: يبلغ ذلك الوحي الذي عنده، يريد شخصاً يحمله لبلاغ الحق، فهذا من الأمور الواجبة أن يتخذ الإنسان سبيلاً في تبليغ الحق.

ثم ينظر إلى موضع البلاغ أن الناس كحال الأراضي: منها ما تمسك الماء فيأتي الناس ويشربون ويغادرون، لكنهم في ذاتهم انتفاعهم بذلك الماء قليل، ومنها ما تأخذ الماء وتنبت الكلأ، فيطعم الناس من ذلك الكلأ، وتطعم البهائم أيضاً، ومنها ما تأخذ الماء فلا تبقيه للشرب ولا تنبت شيئاً.

ولهذا نقول: إنه ينبغي للإنسان أن يضع العلم في موضعه، والإنسان في ذلك كالغيث، والناس المتلقون له كحال الأراضي، أسأل الله عز وجل لي ولكم التوفيق والسداد. وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الثالث

إن منزلة العلم عظيمة، وضدها الجهل وما يترتب عليه من فشو الفتن والهرج، ولا يقع الجهل إلا بقبض العلماء؛ لهذا حث العلماء على طلب العلم، والرحلة في سبيله، وكتابته، وحفظه مع فهمه، والسؤال عما يشكل منه، ومن انشغل عن العلم تناوب مع رفيقه، ولا بد من تبليغ العلم ونشره وتعليمه الناس وإجابتهم عما يسألون عنه على أي حالٍ، قائماً كان أو قاعداً أو بالإشارة، ومن نشر العلم وتعليمه تعليم النساء بأن يخصص لهن يوماً ليعظهن ويفقههن.

باب رفع العلم وظهور الجهل

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

قال الإمام البخاري: [باب رفع العلم وظهور الجهل، وقال ربيعة: لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه.

حدثنا عمران بن ميسرة، قال: حدثنا عبد الوارث، عن أبي التياح، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا).

حدثنا مسدد، قال: حدثنا يحيى، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس قال: لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكم أحد بعدي، سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: (من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد)].

قوله رحمه الله: (باب رفع العلم وظهور الجهل) وثمة تلازم بينهما، إذا رفع العلم فإنه يظهر الجهل، وإذا انقبض الجهل فإن هذا أمارة على وجود العلم، والعلم يكون بقبض العلماء، فميزان خيرية الأمة هو بوجود العلماء لا بوجود المال؛ لأن الناس إذا كانوا على مال بلا علم اقتتلوا وافتتنوا، وبالعلم فإنهم يأنسون ويتآلفون ولو كانوا على فقر؛ ولهذا يقول عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله كما روى ابن وضاح في كتابه البدع والنهي عنها: لا أقول عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، ولكن ذهابكم ذهاب علمائكم. يعني: الخيرية تكون في الأمة مع وجود العلماء، وتنقص تلك الخيرية بنقصان العلماء؛ ولهذا في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (لا يأتي عام إلا والذي بعده شر منه)، والمراد بذلك هو ذهاب العلماء، والبلد التي فيها علماء بمقدار أدائهم لرسالتهم فإن الأمة أمة مرحومة.

قول ربيعة: (لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه)، وذلك أن صاحب العلم إذا ضيع نفسه بعدم البلاغ، أو بعدم الاستزادة من العلم، أو ابتذال النفس فيما دون العلم فذلك من الهدر؛ لأن الإنسان إذا كان جاهلاً بنفسه فغيره أجهل به من نفسه؛ فلهذا ينبغي للإنسان ألا يأخذه ما يسمى بالورع البارد، وألا يأخذه أيضاً في المقابل الجسارة على العلم إذا كان جاهلاً فيجعل في نفسه من العلم ما ليس فيها، بل يعطيها قدرها من جهة البلاغ ومن جهة الأخذ والاستزادة.

شرح حديث أنس: (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم...)

وفي قول النبي ﷺ: [(إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم)] تقدم معنا في حديث ابن العاص وهو في الصحيح، أن النبي ﷺ قال: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) ضلوا بأنفسهم، وأضلوا غيرهم، الله عز وجل هو الذي يرفع العلماء، والجاهل يرفعه الناس؛ ولهذا قال: (اتخذ الناس رءوساً جهالاً)، أما العالم يرفعه الله ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:11]، لهذا العالم لا يمكن أن يوضع، والجاهل لا يمكن أن يرفع؛ وذلك أنه إذا زال رافعه رجع إلى موضعه الذي هو فيه، أما العالم فالله عز وجل هو الذي رفعه بالعلم، ويضعه الله عز وجل إذا زل عن مكانه الذي هو عليه؛ لهذا كم من الناس يحاولون أن يطفئوا شمس عالم بعينه فيعجزون عن ذلك؛ لأن الله عز وجل هو الذي رفعه، وكم من الناس الجهال يحاولون أن يبرزوا جاهلاً، ويأبى الناس أن يدخل قلوبهم؛ لأن الله عز وجل هو الذي يرفع، وهو الذي يخفض، والقبول منه سبحانه وتعالى.

وفي قول النبي عليه الصلاة والسلام: (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم)، أي: أن الناس كلما تأخر الزمن في ذلك قبض العلم منهم، وظهر بذلك الجهل، وثمة تلازم بين قبض العلم وظهور الفتن، فأصل وجود الفتن هو قبض العلم، يعني: أن الناس إذا كانوا لا يعلمون حكم القتل تقاتلوا حمية، أو تقاتلوا لأجل القبيلة، أو تقاتلوا على المال، فما هو الذي يعيد الأمور إلى نصابها؟ العلم من الكتاب والسنة، والعدل والإنصاف؛ لأن الله عز وجل أرسل أنبياءه لإقامة العبادة، ولإقامة العدل في أمور الناس في دنياهم؛ لهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:25]، لهذا العالم من رسالته أن يقوم بالعدل في جانب العبادة والدين، وفي جانب الدنيا؛ وكلما انعزل العالم عن مجتمع الناس والعدل فيهم في أمور الدنيا، وقضاء حوائجهم، والإنصاف في أمورهم، فإن رسالته في ذلك فيها نقص.

النبي عليه الصلاة والسلام ما جاء بالأمور التعبدية فقط، بل جاء ليحفظ الحقوق أيضاً، ينتصر للمظلوم من ظالمه، ومن المبغي عليه من الباغي وهكذا؛ فالنبي ﷺ جاء من ربه سبحانه وتعالى بالعدل كله؛ ولهذا نجد أنبياء الله عز وجل حاربوا الظلم في الأخلاق، الظلم في الأموال، الظلم في أمور الدين، فشعيب عليه السلام أرسله الله عز وجل لأجل ألا يطفف الناس المكيال

والميزان، وألا يبخسوا الناس أشياءهم، يعني: في أمور البيع والشراء، وكذلك أخذ المكوس، وهي: العشر من أموال الناس من غير حق، فهذا من الظلم، فأرسله الله بالعدل في هذا.

ولوط عليه السلام أرسله الله عز وجل لمحاربة الانحراف في الأخلاق، وأنبياء الله عز وجل بعثهم أيضاً لإقامة حق الله عز وجل وتوحيده في الناس؛ لهذا نقول: إن الأحاديث التي تأتي في رفع العلم يتبعها ظهور الجهل، وكذلك لوازم ذلك من الفتن.

شرح حديث أنس: (من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في حديث أنس بن مالك الآخر: (يقل العلم ويظهر الجهل)، ثم ماذا يظهر؟ الزنا، لا يظهر زنا في أمة إلا مع وجود الجهل، ولكن قد يقول شخص: يوجد العالم الفلاني، العالم الفلاني، نقول: هذا ما أدى رسالته، فحاله كحال كتاب لم يفتح، أدى الرسالة أو ما أداها؟ ما أدى تلك الرسالة، إذاً: التقصير من قبله، والعقوبة إذا نزلت على أمة وفيها عالم ولم يكن فيها مصلح أول ما يبدأ بالعالم؛ لأنه لم يتمعر وجهه لحرمات الله؛ ولهذا نقول: إن ظهور الجهل وقبض العلم أمارة على وجود الفتن والاضطراب.

قال ﷺ: (يظهر الزنا وتكثر النساء)، لماذا؟ ما هو اللازم لكثرة النساء وقلة الرجال مع ظهور الزنا؟

الأمراض التي تهلك الناس، وقد جاء في ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام، أن كثرة الزنا هلاك للأمة بكثرة الأمراض؛ ولهذا إذا انتشرت الفاحشة في قوم سلط الله عز وجل عليهم من الأمراض ما لم يكن في أسلافهم فيموتون، كما ينتشر في الأزمنة المتأخرة من الأمراض والأوبئة ما لم تسمع به الأمم من قبل؛ ولهذا يزولون بالقتل، ومن دواعي القتل القتال، لكن لماذا يتقاتلون؟ يتقاتلون على الثروات، على الأموال، على القبلية، على الحزبية، على غير ذلك، يتقاتلون؛ لعدم وجود العلم، يتقاتلون ثم يبيد بعضهم بعضاً، إذاً: هذا لازم لعدم وجود العلم أم لا؟ لازم لعدم وجود العلم، فإذا وجد العلم فالأمة حينئذٍ مرحومة، وإذا ارتفع العلم جاءت لوازم كثيرة، من ذلك: انتشار الفواحش، وما يتبع ذلك من أمراض، وكذلك أيضاً تقاتل الناس على الثروات وغير ذلك، حتى يبقى النساء ويكثرن، ويقل في ذلك الرجال.

باب فضل العلم

قال رحمه الله: [باب فضل العلم.

حدثنا سعيد بن عفير، قال: حدثني الليث، قال: حدثني عقيل، عن ابن شهاب، عن حمزة بن عبد الله بن عمر أن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: (بينما أنا نائم أتيت بقدح لبن، فشربت حتى إني لأرى الري يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب. قالوا: فما أولته يا رسول الله ؟ قال: العلم)].

هذا الحديث فيه مع فضل العلم فضل عمر بن الخطاب عليه رضوان الله، وجلالة قدره في باب العلم، ونقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم حينما بين أنه أعطى عمر بن الخطاب فضله يعني: فيما شرب، إشارة إلى أن المصدر الذي يؤخذ منه العلم الحقيقي هو الوحي الذي أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ، وكذلك أيضاً فيه فضل اللبن وأن تأويله في المنام يكون بالعلم، وكذلك الحليب، فإذا رأى الإنسان أنه يستكثر من الحليب أو نحو ذلك فهذا أمارة على فضله وعلمه وديانته، وفي ذكر فضل العلم، ذكر أن النبي ﷺ شرب من هذا الإناء حتى رأى أثر الري يخرج من أظفاره، يعني: أنه قد امتلأ عليه الصلاة والسلام من هذا اللبن حتى فاض من جسده، وأعطى عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى ما فضل منه.

وقوله: (ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب) أي: أن النبي ﷺ هو الذي أعطى عمر بن الخطابذلك، يعني: أن ما لدى عمر بن الخطاب هو من فضل رسول الله ﷺ عليه، ومنته عليه وعلى الأمة جميعاً، وكذلك أيضاً فيه ما يؤيد حديث العرباض بن سارية عليه رضوان الله تعالى في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين)، ذكر عمر بن الخطاب عليه رضوان الله هنا في الفضل مع أن أبا بكر الصديق أفضل الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، ولا خلاف عند المسلمين في هذا، لكن لعل الإشارة إلى عمر بن الخطاب عليه رضوان الله فيها أن الأمر يطول له من جهة البقاء في الخلافة، بخلاف أبي بكر، فأبو بكر بقي نحواً من سنتين، ولكن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله طال به الأمر بعد أبي بكر الصديق عليه رضوان الله، فكانت الإشارة إليه في مثل هذا، وربما في هذا تنبيه للصحابة أن يأخذوا من عمر بن الخطاب للحاجة إليه، وحاجة الناس لطول زمنه، وكذلك أيضاً كثرة الفتن مع كثرة الفتوحات، والفضل الذي آتاه الله عز وجل إياه، واتساع رقعة الإسلام في زمنه، وكثرة الناس وتوافدهم عليه، وقد كثرت رعيته عليه رضوان الله.

باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها

قال رحمه الله: [باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها.

حدثنا إسماعيل، قال: حدثني مالك، عن ابن شهاب، عن عيسى بن طلحة بن عبيد الله، عن عبد الله بن عمرو بن العاص (أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه فجاءه رجل فقال: لم أشْعُر فحلقت قبل أن أذبح؟ فقال: اذبح ولا حرج. فجاء آخر فقال: لم أشْعُر فنحرت قبل أن أرمي؟ قال: ارم ولا حرج فما سُئل النبي ﷺ عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: افعل ولا حرج)].

في هذا فتيا النبي عليه الصلاة والسلام وهو على الدابة، وفي هذا إشارة إلى أن العالم ينشغل بقضاء حاجة الناس وإجابتهم أياً كانت حاله، كان قائماً أو ماشياً أو كان جالساً، ولا موضع لبلاغ العلم ينصرف الإنسان فيه عن قضاء حاجة الناس، بل إن الإنسان على مدار يومه وليلته منصرف لتوجيه الناس، وهذه هي الرسالة والأمانة التي أعطاه الله عز وجل إياها، لا يقول: إن عملي إنما هو مقيد بساعات أو نحو ذلك، إذا وجد جاهلاً علمه وأعطاه ما أعطاه الله عز وجل من خير؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك، فلا يحتاج إلى مقاعد، أو إلى مياثير، أو إلى حلق، أو غير ذلك، إذا وجد من يسألونه في الطريق

أعطاهم حينئذٍ سؤالهم وإجابتهم لحاجتهم إلى ذلك، وأيضاً فإن الإنسان إذا كان جاهلاً ويحتاج إلى مسألة، لا ينتظر إلى اجتماع الناس في موضع أو مسجد أو نحو ذلك، أو مثلاً في مكاتب أو مدارس، يسأل ولو كان في الطريق، فإذا وجد الإنسان قائماً أو راكباً يسأله عن شيء من الدين حتى يبرئ دينه.

كذلك أيضاً في وقوف النبي عليه الصلاة والسلام على الدابة إشارة إلى أنه ينبغي للعالم أن يبرز للناس بحيث يسمعونه جميعاً، بخلاف لو كان مثلاً لا يراه إلا واحد أو نحو ذلك، ولكن يبرز للناس عند الخطب على المنابر أو الكراسي أو نحو ذلك خاصة عند وجود الجمع حتى يرى الناس ويفهمون الخطاب وتبلغهم العبارة وكذلك أيضاً الإشارة، بخلاف ما لو كان جالساً عند عدد لا يراه الأدنى منهم.

باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس

قال رحمه الله: [باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس].

شرح حديث ابن عباس: (ذبحت قبل أن أرمي؟ فأومأ بيده وقال: ولا حرج...)

قال رحمه الله: [حدثنا موسى بن إسماعيل، قال: حدثنا وهيب، قال: حدثنا أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباسأن النبي صلى الله عليه و سلم سئل في حجته فقال: (ذبحت قبل أن أرمي؟ فأومأ بيده قال: ولا حرج. قال: حلقت قبل أن أذبح؟ فأومأ بيده ولا حرج)].

وفي هذا إشارة إلى أن البلاغ لا يقتصر على العبارة، فربما كان بالإشارة، وربما كان أيضاً برسم البيان، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان كثيراً ما يعلم أصحابه بالبيان، أو بضرب المثال، أو ربما بالرسم والخط على الأرض؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يبين الصراط المستقيم خط خطاً، ثم خط عن يمينه وشماله خطوطاً، ثم قام يشرح لهم، وهذا الرسم بالبيان لتبيين العلم، فهذا من الأمور الشرعية التي كان النبي عليه الصلاة والسلام يبينها لأصحابه، كذلك كان يعلم بالمثال، فيضرب مثالاً كقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث عبد الله بن عمر: (بني الإسلام على خمس) يعني: كحال البناء، فشبهه بالبناية من البيوت وغير ذلك (بني الإسلام على خمس) يعني: على خمسة أركان، كذلك في قول النبي عليه الصلاة والسلام مشبهاً للإسلام بالغيث على ما تقدم في حديث أبي موسى (مثل ما بعثني الله به من الهدى والخير كمثل الغيث)، يعني: إشارة إلى التمثيل في هذا، كذلك أيضاً في حديث النعمان بن بشير في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه) لهذا نقول: إن في مثل هذا شيء من البيان، وتقريب المعاني للناس، والإفهام، كذلك بالإشارة له أن يبين، إذا علم أن الإنسان يفهم بمجرد إشارته.

شرح حديث أبي هريرة: (يقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن ويكثر الهرج...)

قال رحمه الله: [حدثنا المكي بن إبراهيم، قال: أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان، عن سالم، قال: سمعت أبا هريرةعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج. قيل: يا رسول الله وما الهرج؟ فقال: هكذا بيده فحرفها كأنه يريد القتل)].

يعني: كحال الإنسان يضرب بالسيف، أو يضرب مثلاً بشيء من الأسلحة التي تقتل الإنسان، فهو يشير بذلك إلى ورود القتل في الناس.

شرح حديث أسماء: (ما من شيء لم أكن أريته...)

قال رحمه الله: [حدثنا موسى بن إسماعيل، قال: حدثنا وهيب، قال: حدثنا هشام، عن فاطمة، عن أسماء، قالت: (أتيت عائشة وهي تصلي، فقلت: ما شأن الناس؟ فأشارت إلى السماء فإذا الناس قيام، فقالت: سبحان الله. قلت: آية؟ فأشارت برأسها: أي نعم، فقمت حتى تجلاني الغشي، فجعلت أصب على رأسي الماء، فحمد الله عز وجل النبي صلى الله عليه و سلم وأثنى عليه، ثم قال: ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي حتى الجنة والنار، فأوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريب –لا أدري ذلك قالت أسماء – من فتنة المسيح الدجال، يقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن –لا أدري بأيهما قالت أسماء – فيقول: مُحَمَّد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا واتبعنا، هو مُحَمَّد ثلاثاً، فيقال: نم صالحاً قد علمنا إن كنت لموقناً به، وأما المنافق أو المرتاب –لا أدري أي ذلك قالت أسماء – فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته)].

في هذا جملة من المسائل: منها ما يتعلق بباب التعليم بالإشارة، فقد أشارت عائشة عليها رضوان الله تعالى إلى السماء، لما سئلت: ما بال الناس؟ يعني ما أحوالهم؟ حيث أنهم يجتمعون في غير موعد الصلاة، فأشارت إلى السماء. في هذا إشارة إلى أنه يجوز للإنسان أن يعلم غيره بالإشارة ولو كان في صلاة إذا احتاج إلى ذلك.

وأما الخبر الذي يروى (من أشار في صلاته إشارة تفهم عنه فقد بطلت صلاته) هذا خبر منكر بل هو موضوع؛ لهذا نقول: إن الإشارة في الصلاة جائزة إذا كانت لا تشغل الإنسان، وفيها دفع لانشغال ذهنه أو فكره، أو صرف مثلاً من يريد إشغاله، كأن يسأل الإنسان عن متاع وهو يصلي، ويخشى من انصراف قلبه ونحو ذلك بمثل هذا، أو يريد أن يذكر بشيء نسيه أو نحو ذلك، فيشير بيده أو يشير إلى ناحية وهو يصلي، هذا مما لا حرج فيه، كذلك أيضاً مخاطبة المصلي عند الحاجة، فمخاطبة المصلي عند الحاجة جائزة، كما خوطبت عائشة هنا عليها رضوان الله تعالى بذلك، فأجابت ولم تستنكر بعد ذلك توجيه السؤال إليها، قد يحتاج الإنسان لضرورة أو حاجة إلى سؤال شخص، أين المتاع الفلاني؟ أو أين فلان موجود أم ذهب؟ فيشير

مثلاً لحاجته إذا كان الإنسان لا يستطيع الانتظار في ذلك، فهذا من الأمور التي لا بأس بها، ولا تبطل بها الصلاة.

وفي ذلك أيضاً من المسائل أن الإنسان كلما كان صاحب علم كان أكثر ثبات، ويظهر ثباته في حياة البرزخ في الفتنة، ذكر النبي عليه الصلاة والسلام الفتان في القبور فقال: (تعود أرواحكم، فقالوا: يا رسول الله تعود أرواحنا؟ قال: نعم كهيئتكم اليوم)، يعني: ترجع إليكم عقولكم وأرواحكم كهيئتكم اليوم، فتسألون، يعني: تسألون عن الله سبحانه وتعالى، وعن رسول الله ﷺ وعن دين الإسلام، فمن كان على رسوخ وقوة فإنه يجيب بلا تلكؤ، ومن كان في تردد وشك وريب يظهر شكه في هذا الموضع، هل أنا أصيب إن قلت هذا ربما يكون غيره، أو غير ذلك فيقع في تردد، بخلاف الإنسان الراسخ الذي على بينة وثبات في ذلك.

باب تحريض النبي وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم

قال رحمه الله: [باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم، ويخبروا من وراءهم.

وقال مالك بن الحويرث: قال لنا النبي ﷺ: (ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم).

حدثنا مُحَمَّد بن بشار، قال: حدثنا غندر، قال: حدثنا شعبة، عن أبي جمرة قال: (كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس، فقال إن وفد عبد القيس أتوا النبي ﷺ فقال: من الوفد أو من القوم؟ قالوا: ربيعة، فقال: مرحباً بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى. قالوا: إنا نأتيك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله عز و جل وحده، قال: هل تدرون ما الإيمان بالله وحده. قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخمس من المغنم، ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت)، قال شعبة ربما قال: (النقير)، وربما قال (المقيَّر)، قال: (احفظوه وأخبروه من وراءكم)].

في هذا الحديث أن النبي ﷺ أوصى بحفظ العلم، والحفظ هنا المراد به حفظ الصدر، وأن الإنسان ينبغي أن يعتني بجانب الحفظ، والحفظ بأنواعه سواء كان حفظ العلم بالصدر وهو أثبت وأرسخ للإنسان، بخلاف العلم إذا كان مجرداً عن حفظ، وإنما هو بفهم مجرد مع الوقت ربما ينساه الإنسان؛ لهذا ينبغي أن تكون للإنسان قاعدة في حفظه في كل علم يريد أن يتعلمه، فإذا كثر محفوظه وقوي مفهومه وأسهب في ذلك كان أرسخ في العلم وأثبت فيه، فينبغي له أن يكثر في كل فن من الحفظ والفهم، أن يجمع بينهما، وألا يحفظ بلا فهم، فإن ذلك لا يفيد طالب العلم كثيراً إذا كان لا يفهم ويحفظ حفظاً مجرداً هكذا، وربما أورثه ذلك شيئاً من الغرور والادعاء بالنفس من غير فهم، فالعلم هو الاستنباط والإدراك، ولكن القاعدة والثبات في ذلك هو في أمر الحفظ.

قوله رحمه الله: (باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس)، النبي عليه الصلاة والسلام حرضهم وحثهم على حفظ هذا العلم الذي أخبرهم إياه، حتى يبلغوا به من وراءهم، والنبي ﷺ إنما نوع الجواب على اختلاف حاجة الناس، وهذا يظهر في كثير من الأسئلة التي توجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، تارة يسأل: (أي العمل أفضل؟ فيقول: الصلاة على وقتها)، وتارة يسأل: (أي العمل أفضل؟ فيقول: أن تطعم الطعام وتقرأ السلام)، ويسأل تارة: (أي العمل أفضل؟ فيقول: الإيمان بالله ثم الجهاد في سبيل الله)، اختلف الجواب لاختلاف حال السائلين، وهكذا ينبغي أن يكون العالم الرباني ينظر إلى حال الإنسان، إذا كان من أهل كمال التوحيد والعناية بذلك ومعرفة مقداره والعمل به، ولكن لديه قصور في جانب من جوانب الإنفاق والصدقة أو نحو ذلك يحثه على جانب الإنفاق، (أن تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)، كذلك جانب الصلاة إذا رأى أن لديه تقصيراً في جانب الصلاة أو نحو ذلك فسأله الوصية يوصيه بالتمسك بالصلاة على وقتها وهكذا، فيختلف الجواب حينئذ باختلاف حال السائل.

والنبي ﷺ لما جاءه وفد عبد قيس سألهم فقال: (من الوفد أو من القوم)، وفي هذا أنه يستحب للإنسان إذا قدم إلى أحد ولم يعرف بنفسه أن يسأله من أنت؟ من أي بلد؟ من أي قوم؟ أو نحو ذلك فإن هذا أدعى لتقديره ومعرفة حاله، فربما يكون سيداً في قومه ولم تعطه قدره، فينفر ويحتاج إلى تأليف، وربما يكون شخصاً جاء من مكان بعيد وتظن أنه جاء من بلدك، ويختلف التعامل مع من جاء إليك قاصداً من بلد بعيد، فهذا ينبغي أن يقدر أكثر من غيره؛ لأنه جاء من شقة بعيدة قاصداً، فيلان معه، ويكرم إكراماً يليق بالمشقة التي وقعت له، بخلاف الذي يأتيك من طرف مدينتك، وهكذا؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام قال: (من الوفد ومن القوم؟) فأجابوا رسول الله ﷺ، فنقول: إنه ينبغي للإنسان أولاً أن يعرف بنفسه.

وقد تقدم معنا في قول ضمام بن ثعلبة: أنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر، يعني أنه عرف بنفسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهنا النبي عليه الصلاة والسلام سأل عن القوم؟ فأجابوه في ذلك حتى يجيبهم النبي ﷺ فيعلم مقدار الجهل فيهم، ويعلم مقدار الخطأ الذي يقعون فيه، ربما يكثر في بلد نوع من المخالفات الشرعية فيعرف أحوالهم فيجيبهم بمقدار ما عندهم من خطأ، إذا انتشر عندهم مثلاً شهادة الزور، انتشر عندهم الكذب، انتشر عندهم الشرك، انتشر عندهم الزنا، انتشر عندهم السفور، انتشر عندهم الفاحشة، يقوم بإجابتهم بحسب ما لديهم، هذا هو العالم الرباني الذي يعرف أحوال الناس وأمراضهم في دينهم، ثم يقوم بإنزال ذلك الدواء والشفاء؛ لأن القرآن شفاء لكل شيء، فيقوم بإعطائهم تلك الأحكام.

وهنا النبي ﷺ حينما حثهم على الإيمان وأمرهم بأشياء أشار إلى أشياء معدودة؛ لأنه ينبغي للإنسان خاصة إذا كان القوم على عجل أن يقلل في المعلومات حتى يحفظوا ويدركوا تلك المعلومات، فأمرهم النبي عليه الصلاة والسلام بأربع، ونهاهم عن أربع مع أن المأمورات كثيرة، لكن هذا ما يحتاجون إليه ويضبطوه، وهذا باب من أبواب التدرج، ألا يعطى الناس الحق كله حتى لا ينفروا منه؛ وذلك نوع من التأليف والتدرج، كذلك أيضاً ينبغي للإنسان أن يعرف ألفاظه العامة إذا جهلها الناس؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام أمرهم بالإيمان، ثم قال: (هل تدرون ما الإيمان؟)، وهذا فيه شرح وتفسير للمصطلحات والإجمالات من الإنسان ولو لم يسأل، وهنا فيه تأدبهم مع رسول الله ﷺ في قولهم: (الله ورسوله أعلم)، ثم ذكر النبي عليه الصلاة والسلام أركان

الإسلام الخمسة، وأضاف إليها مكان الحج قال: (وتعطوا الخمس من المغنم)، وكذلك نهاهم النبي ﷺ عن الحنتم والمزفت والدباء، الدباء نوع من النبات، وكذلك الحنتم.. المزفت.. المقير وغير ذلك، وهي وسائل يتخذ منها الخمر بتخميره فيها، وكانت العرب تأتي مثلاً إلى الدباء، أو ساق النخل، ويقومون بحفره ويضعون فيه العنب، أو يضعون فيه التمر، ويقومون بكتمه بداخله حتى يتخمر، ويقل الأكسجين لديه، فيصبح خمراً، كذلك أيضاً يأتون إلى الدباء والقرع ويقومون بشقة إلى نصفين، ثم يفرغونه من داخله، فيقومون بوضع العنب أو التمر أو نحو ذلك ويقومون بإغلاقه وكتمه بشيء حتى يتعرق ويتخمر في داخله، هذا ليس تعليماً ولكن من باب الشرح.

والحفظ والفهم يتصاحبان؛ لأنه إذا حفظ من غير فهم ربما حفظ على غير الوجه الصحيح من جهة اللفظ، فإذا رسخ في ذهنه نطق غير صحيح يبقى في ذهنه ويرسخ أكثر، فينبغي أن يحفظ المحفوظ على وجهه ويعرف المقصود منه.

باب الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله

قال رحمه الله: [باب الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله.

حدثنا مُحَمَّد بن مقاتل أبو الحسن، قال: أخبرنا عبد الله، قال: أخبرنا عمر بن سعيد بن أبي حسين، قال: حدثني عبد الله بن أبي مليكة عن عقبة بن الحارث أنه تزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيز فأتته امرأة، فقالت: (إني قد أرضعت عقبةوالتي تزوج، فقال لها عقبة: ما أعلم أنك أرضعتني ولا أخبرتني، فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فسأله، فقال رسول الله ﷺ: كيف وقد قيل. ففارقها عقبة، ونكحت زوجاً غيره)].

تقدم معنا الكلام على الرحلة واستحباب ذلك، وهنا ارتحل هذا الصحابي إلى النبي عليه الصلاة والسلام ما بين مكة والمدينة ليسأله عن أمر واحد، وفي هذا استبراء الإنسان لدينه، خاصة ما يتعلق في الأمور العظيمة من أمور الأبضاع وهي الفروج، وكذلك أيضاً ما يتعلق بأمور التوحيد ونحو ذلك، فإذا وقعت على الإنسان نازلة في ذلك فإن يذهب ويسأل ويستفصل من أهل العلم في ذلك ويرتحل، فقد كانوا يرتحلون على أقدامهم، وقد يسر الله عز وجل للناس في الأزمنة المتأخرة وسائل يرتحلون فيها، وربما يرتحل الإنسان ويطوف الأرض وهو في راحة ودعة، وهذا يدل على أن التكليف على الناس في مثل هذه الأمور هو أعظم، فبعض الناس يظن أن هذه وسائل راحة، لا هي أيضاً وسائل تكليف وإقامة حجة ونزع للأعذار من كثير من الناس الذين يتحججون، ربما تكون الأمة الأولى أرحم من هذه الأمة مع وجود هذه الوسائل، فليس هذا فضلاً لها، بل ربما أراد الله عز وجل أن يقيم الحجة على المقصرين أكثر من غيرهم؛ لذلك ينبغي للإنسان أن يبرئ ذمته؛ ولهذا نجد في كثير من الناس للأسف الشديد تكاسلاً عن تحصيل العلم الشرعي خاصة مع الوسائل الحديثة، الآن يستطيع الإنسان أن يتابع دروساً علميةً من أقصى الأرض، ومع ذلك الزهد في هذا ظاهر للناس، وكان الناس يرتحلون ويتمنون أن يلتقوا بعالم أو يسمعوا منه شيئاً، ويمر على طالب العلم في مشارق الأرض أو مغاربها ربما سنة وسنتين ولم يختم كتاباً علمياً أو يقرأ أحاديثاً عن رسول الله ﷺ ويفهم معانيها، وإن لم يجدها في بلده تضجر وقال: لا توجد في بلدي، والوسائل في ذلك اليوم متاحة.

باب التناوب في العلم

قال رحمه الله: [باب التناوب في العلم.

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري ح، قال أبو عبد الله: وقال ابن وهب: أخبرنا يونس، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن عبد الله بن عباس، عن عمر قال: (كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك، فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته فضرب بابي ضرباً شديداً، فقال: أثم هو؟ ففزعت فخرجت إليه، فقال: قد حدث أمر عظيم، قال: فدخلت علىحفصة فإذا هي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ قالت: لا أدري، ثم دخلت على النبي ﷺ فقلت وأنا قائم: أطلقت نساءك؟ قال: لا. فقلت: الله أكبر)].

يونُس لها ست أوجه يونُس و يونُسء ويونِس يونِسء ويونَس ويونَسء بضم النون وفتحها وكسرها، هذه ثلاثة وكل واحدة معها همزة في آخرها وبدون همزة.

قوله رحمه الله: (باب: التناوب في العلم)، يعني: أن يحرص الإنسان على عدم تفويت شيء من مسائل العلم سواء قام بنفسه أو أناب غيره، وهذا فيه حرص الصحابة عليهم رضوان الله تعالى على مسائل العلم التي يعلمهم رسول الله ﷺ إياها، فيحرص طالب العلم على التلقي والفهم، وإذا فاته شيء من ذلك فانشغل بأمر الدنيا كالوظائف والعمل بالتكسب، أو ربما ينشغل الإنسان بشيء من الأعذار التي هي قائمة فيه كالأمراض أو الأسقام، فلا يفوت شيئاً من ذلك فينيب غيره بسؤاله عن مسائل العلم، ولو على سبيل الاختصار، خاصةً أنَّ التناوب الآن في هذا سهل عبر أجهزة التسجيل ونحو ذلك، فيستطيع الإنسان أن يستدرك ما فاته من مسائل العلم، وهذا فيه حرص الصحابة عليهم رضوان الله تعالى أيضاً في هذا تبعاً لحال النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهه لأصحابه على الجمع بين مصالح الدين والدنيا، فما عطلوا دنياهم، وما فوتوا أيضاً مسائل العلم، فكان بعضهم ينيب الآخر في تحصيل العلم، ويقوم أيضاً بأمر دنياه؛ ولهذا النبي ﷺ يقول: (كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يملك قوته)، يعني: أن الإنسان إذا كان لديه من ينفق عليهم من ذرية أو زوجة أو كذلك أب وأم ونحو ذلك إن كان لديه هذا الإثم فهو كاف في إهلاكه والإضرار به، والحساب عليه حساب عسير؛ لأن من الأمور الواجبة أن يقوم الإنسان على ذلك؛ ولهذا كان الصحابة عليهم رضوان الله تعالى مع وجود هذه الأمور يوازنون بين مصالح الدين ومصالح الدنيا، فلا يفوتون ديناً ولا يفوتون دنيا، وفي هذا حرص الصحابة عليهم رضوان الله تعالى على هذا، وعلى معرفة أيضاً الجديد من حال النبي عليه الصلاة والسلام مما ينزل عليه من أمور الوحي؛ ولهذا كان عمر بن الخطابعليه رضوان الله تعالى لما طرق الباب عليه خشي أو ظن أن النبي ﷺ نزل عليه أمر أو نزل به خطب عظيم فاستفصل من ذلك، فاطمأن بعد ذلك أن الأمر على خلاف ما ظن.

باب الغضب في الموعظة والتعليم، إذا رأى ما يكره

قال رحمه الله: [باب الغضب في الموعظة والتعليم، إذا رأى ما يكره].

في هذا أيضاً استحباب التكبير عند سماع الأخبار السارة الحسنة التي تسر الإنسان كما كبر عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى لما علم أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يطلق نساءه؛ لأن من نسائه حفصة بنت عمر عليها رضوان الله تعالى، فهو يحب القرب من رسول الله ﷺ.

قال رحمه الله: [حدثنا محمد بن كثير، قال: أخبرنا سفيان، عن ابن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي مسعود الأنصاري، قال: (قال رجل: يا رسول الله! لا أكاد أدرك الصلاة مما يطيل بنا فلان، فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضباً من يومئذ، فقال: أيها الناس! إنكم منفرون، فمن صلى بالناس فليخفف؛ فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة).

حدثنا عبد الله بن محمد، قال: حدثنا أبو عامر، قال: حدثنا سليمان بن بلال المديني، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمنعن يزيد مولى المنبعث عن زيد بن خالد الجهني: (أن النبي ﷺ سأله رجل عن اللقطة فقال: اعرف وكاءها، أو قال: وعاءها وعفاصها، ثم عرفها سنة، ثم استمتع بها، فإذا جاء ربها فأدها إليه، قال: فضالة الإبل؟ فغضب حتى احمرت وجنتاه، أو قال: احمر وجهه، فقال: وما لك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وترعى الشجر، فذرها حتى يلقاها ربها. قال: فضالة الغنم؟ قال: لك أو لأخيك أو للذئب).

حدثنا محمد بن العلاء، قال: حدثنا أبو أسامة، عن بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى قال: (سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب ثم قال للناس: سلوني عما شئتم. فقال رجل: من أبي؟ قال: أبوك حذافة. فقال آخر: من أبي يا رسول الله؟ فقال: أبوك سالم مولى شيبة، فلما رأى عمر ما في وجهه قال: يا رسول الله! إنا نتوب إلى الله عز و جل)] .

غضب النبي ﷺ في تبليغه لبعض العلم؛ وذلك لبيان أهمية الجواب عند سؤاله، أو ربما أيضاً أهمية خبر ذلك الأمر الذي وقع فيه الناس حتى يأخذوه على محمل الجد، وفي هذا أيضاً لفت لانتباه السائلين لأهمية الجواب وخطره أيضاً على الناس في حال تفريطهم في تلقيه أو في أخذه وفهمه وبلاغه؛ ولهذا النبي ﷺ لا ينتصر ولا يغضب لنفسه، وإنما يغضب للحق، ربما يؤذى النبي عليه الصلاة والسلام ويساء إليه، ومع ذلك لا ينتقم ولا ينتصر لنفسه إلا إذا انتهكت محارم الله عز وجل فيعرف ذلك في وجهه، وهذا ظاهر في هذه الأحوال التي ذكرها المصنف رحمه الله تعالى عن رسول الله ﷺ.

باب من برك على ركبتيه عند الإمام أو المحدث

الملقي: [باب من برك على ركبتيه عند الإمام أو المحدث.

حدثنا أبو اليمان، قال: أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: أخبرني أنس بن مالك: (أن رسول الله ﷺ خرج فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي؟ فقال: أبوك حذافة، ثم أكثر أن يقول: سلوني، فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام

ديناً، وبمحمد صلى الله عليه و سلم نبياً فسكت)].

في هذا تواضع المتعلم عند المعلم، وجاء هذا في قصة جبريل عليه السلام لما جاء إلى رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة، وجاء في مسلم من حديث ابن عمر عن أبيه أن جبريل لما جاء إلى رسول الله ﷺ أسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه إشارة إلى الأدب والتواضع عند المعلم تقديراً وإجلالاً له، وأيضاً في هذا ما فعله أبو بكر و عمر عند رسول الله ﷺ حينما جثيا على الركبتين للتواضع واللين، وأيضاً طلب العفو والمسامحة من رسول الله ﷺ إن تسبب أحد في إغضابه ولم ينتصر للحق، وفي هذا أيضاً تأليف نفس الغاضب في الحق واللين معه، خاصة إذا كان صاحب منزلة علية كالعالم، وكذا قبل ذلك منزلة رسول الله ﷺ.

وسؤال عبد الله بن حذافة حينما جاء النبي ﷺ فقال: من أبي؟ لأن الناس كانت تقع في الاختلاف في ملامحه عن ملامح أبيه، صورته وصورة أبيه، كما في قصة أيضاً أسامة بن زيد ووقوع الناس في ذلك، نقول: إن النبي ﷺ إنما غضب في ذلك حتى لا يسترسل الناس في مثل هذا السؤال، كي لا يفتح هذا باب شر على الناس، فكل يأتي ويقع في شك بعد أن كان غافلاً فيظهر أمره في الناس، كل يأتي إلى النبي فيقول من أبي؟ وهم يعلمون أن النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

وغضب النبي عليه الصلاة والسلام، أي أنه: سئل وأجاب فأراد أن يغلق هذا الباب؛ لأنه يفتح باب فتنة عظيمة باتهام الناس في الأعراض بمجرد الظنة، فإذا رأى الإنسان في صورته أو في صورة ابنه اختلافاً يسيراً أو نحو ذلك ظن سوءاً، وهذا موجود في الناس، قد ينزعه عرق لجده من أبيه أو لجده من أمه أو لأحد قراباته أو نحو ذلك، وهذا موجود مشهور في الناس، فيقع الظن في هذا، والنبي ﷺ غضب من هذا، فالصحابة عليهم رضوان الله تعالى عرفوا ذلك في وجهه، ثم أغلقوا هذا الباب.

في هذا أيضاً في بروك عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى بين يدي رسول الله ﷺ أي أن النبوة لا ينتظرونها بمجرد جواب النبي عليه الصلاة والسلام عن أبي فلان وفلان ونحو ذلك، وإنما هم يرضون بالله رباً وبالإسلام ديناً من غير هذا، يعني أننا لسنا في شك من النبوة حتى نسأل من هو أبو فلان وأبو فلان، وأن النبوة قائمة في قلوبنا، والتصديق في ذلك قائم قولاً وعملاً واعتقاداً، وهذا الذي أراده أيضاً عمر بن الخطاب عليه رضوان الله.

باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، فقال: (ألا وقول الزور)

قال رحمه الله: [باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، فقال: (ألا وقول الزور) فما زال يكررها، وقال ابن عمر: قال النبي ﷺ: (هل بلغت) ثلاثاً .

حدثنا عبدة، قال: حدثنا عبد الصمد، قال: حدثنا عبد الله بن المثنى، قال: حدثنا ثمامة بن عبد الله، عن أنس عن النبي صلى

الله عليه وسلم (أنه كان إذا سلم ثلاثاً، وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً).

حدثنا عبدة بن عبد الله، حدثنا عبد الصمد، قال: حدثنا عبد الله بن المثنى، قال: حدثنا ثمامة بن عبد الله، عن أنس: عن النبي صلى الله عليه و سلم: (أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً، حتى تفهم عنه، وإذا أتى قوم فسلم عليهم، سلم عليهم ثلاثاً).

حدثنا مسدد، قال: حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن يوسف بن ماهك، عن عبد الله بن عمرو قال: (تخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر سافرناه، فأدركنا وقد أرهقنا الصلاة صلاة العصر، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثاً)].

تقدمت الإشارة إلى هذا الحديث في قول النبي ﷺ: (ويل للأعقاب) مرتين، أو ثلاثاً، وفي مسألة رفع الصوت أمر النبي عليه الصلاة والسلام منادياً ينادي في الناس: (ويل للأعقاب)، وفي هذا تكرار العلم والمسائل حتى يفهم الناس ويدركوا، وهذا سنة النبي عليه الصلاة والسلام في تكرار الحديث، إذا غلب على ظن المحدث أنه لم يفهم من حوله، خاصة إذا كان الخطاب يتوجه إلى جماعة كثيرة، بخلاف الخطاب الذي يتوجه إلى وحد بعينه فالغالب أن يكون الذهن حاضراً فإجابة واحدة تكفيه، أما إذا كانوا جماعة فربما كان وأحدهم غافلاً أو نحو ذلك، فربما أخذ بعض الحق الذي سمعه، وربما كان الحق مكملاً لبعضه فنقصانه يؤدي إلى شيء من القصور، فكان النبي ﷺ يكرر كلامه، وكذلك توجيهه للناس حتى يفهم عنه.

باب تعليم الرجل أمته وأهله

قال رحمه الله: [باب تعليم الرجل أمته وأهله.

أخبرنا محمد هو ابن سلام، حدثنا المحاربي، قال: حدثنا صالح بن حيان، قال: قال عامر الشعبي: حدثنا أبو بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن أدبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران)، ثم قال عامر: أعطيناكها بغير شيء قد كان يركب فيما دونها إلى المدينة].

وفي هذا أيضاً ما تقدم الإشارة إليه من حق من تلي أمره بالعلم، سواء كانوا أولاداً من بنين وبنات وزوجة وإخوة وأخوات؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى حق الموالي من العبيد والإماء بالتعلم، وجعل النبي ﷺ أن مقام الإنسان الذي يعلم جاريته ثم يقوم بإعتاقها أن له من الأجر ضعفين؛ وذلك للإعتاق؛ وكذلك أيضاً للتعليم، وكذلك أيضاً تعليم الخدم العمال الذين يكونون أجراء عند الإنسان، هؤلاء أيضاً من حقهم إذا كان يملك علماً أن يؤديه إليهم بتعليمهم لأمر دينهم والواجب عليهم ونحو ذلك، وهذا له أثر على نفوسهم أعظم من غيرهم باعتبار أن العبد يقبل من سيده؛ لأنه يملك عصمة حريته فيقوم بإعتاقه أو إبقائه على ما هو عليه فيقبل منه؛ لأنه يرجو منه خيراً، كذلك أيضاً صاحب المال مع الخادم عنده، والأجير ونحو ذلك،

فعليه أن يستغل مثل هذه الفرص في البون بينهم حتى يقبل منه ويأخذ منه الحق، وهذا من المواضع التي يتوجه الخطاب فيها إلى الناس بتعليم الأمة الخير.

وقول عامر الشعبي: [أعطيناكها بغير شيء قد كان يركب]، وفي رواية في البخاري [يرحل فيما دونها إلى المدينة]، يعني: أن أمثال هذه المسائل العلمية تؤخذ برحلة، وقد جاءتك من غير ارتحال، وهذا فيه تذكير وتنبيه إلى بعض مسائل العلم المهمة التي يأخذها الإنسان من غير اكتراث بها، أن يعلم أن هذه المسائل وهذه الأحاديث قد كان الناس يذهبون إليها إلى أماكن بعيدة، وقد جاءتك وأخذتها من غير ارتحال فأرعها سمعك، وقم بحفظها وصيانتها، وكذلك أداء شكرها، وأداء الشكر هو: بتبليغها لمن يحتاجها، كما أخذتها من غير تعب فأدها لغيرك من غير تعب، تبرأ ذمتك في ذلك، وتؤدي حقها بالعلم والعمل.

باب عظة الإمام النساء وتعليمهن

الملقي: [باب عظة الإمام النساء وتعليمهن.

حدثنا سليمان بن حرب، قال: حدثنا شعبة، عن أيوب، قال: سمعت عطاء، قال: سمعت ابن عباس، قال: أشهد على النبي ﷺ، أو قال عطاء: أشهد على ابن عباس: (أن رسول الله ﷺ خرج ومعه بلال، فظن أنه لم يسمع النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه)].

وكان النبي ﷺ أيضاً يجعل للنساء أياماً يعظهن فيه، كما جاء في حديث (أبي سعيد الخدري: أن النساء أتين إلى رسول الله ﷺ، فقلن: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً، فجعل النبي ﷺ لهن يوماً)، وفي هذا أن النساء لم يحضرن في ميادين الرجال للتعلم، بل يسألن يوماً خاصاً وهم يوم خير الخلق وأطهر الناس قلوباً، كان النبي عليه الصلاة والسلام يجعل لهن مجالس خاصة، وهذا دليل على محظورية الاختلاط في مسائل التعليم، وكذلك مسائل العمل، فماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لما قلن له: غلبنا عليك الرجال. هل قال: احضرن مع الرجال؟ بل النبي عليه الصلاة والسلام مع ضيق وقته وكثرة رعاياه وولايته ومشاغله جعل لهن يوماً، وأعاد عليهن ما كان يعلمه الرجال، فما زاد النبي عليه الصلاة والسلام في التعليم لهن إلا ما كان من خصائصهن، وإلا فالأصل أنه يتوجه إليهن الخطاب في أمور التوحيد والصلاة والزكاة، وأيضاً أداء الأمانة وغير ذلك، وهذا فيه وجوب تعليم من يلي أمر النساء لهن، بتعليم دينهن وتفقيههن وتبصيرهن بأحكام الشريعة عليهن.

باب الحرص على الحديث

قال رحمه الله: [باب الحرص على الحديث.

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، قال: حدثني سليمان، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة أنه قال: (قيل: يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: لقد ظننت يا أبا هريرة ! ألا يسألني عن

هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه)].

في هذا تباين المتعلمين بالحرص والتلقي، وقد امتاز أبو هريرة عليه رضوان الله تعالى بكثرة السماع من رسول الله ﷺ وكثرة المخالطة، وفاق كثيراً أو أكثر الصحابة عليهم رضوان الله تعالى بالحرص على الأخذ عن رسول الله ﷺ حتى ظن النبي عليه الصلاة والسلام ألا يستفهم منه أحد في مثل هذه المسائل ودقائقها قبل أبي هريرة عليه رضوان الله تعالى، وهذا من حرصه، كذلك أيضاً فيه تشجيع العالم للمتعلم بأن ينبهه على حرصه وعنايته ويشكره كذلك عليها؛ لأن النبي ﷺ قال لأبي هريرة: (لقد ظننت يا أبا هريرة! ألا يسألني أحد عن هذا الحديث أول منك أو قبلك)، وذلك لما يراه من حرصه وعنايته، وفي هذا تشجيع وتحفيز وتحضيض له أيضاً على الاستمرار على ذلك، وفي هذا شيء من المدح المباح المثبت للإنسان.

باب كيف يقبض العلم

قال رحمه الله: [باب كيف يقبض العلم. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ ولتفشو العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً].

ودروس العلم هو: اندفان العلم، وهذا فيه تمثيل أن اندراس الشيء كاندفانه إذا جاءت الريح ثم قامت بدفنه، فمثلاً مواضع القوم بعد أن يرتحلوا تدفن، كذلك الثوب إذا كان في البرية ثم جاءته الريح وسفت عليه الرمال فإنه يندفن؛ ولهذا جاء في حديث حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب)، وشي الثوب: يعني: أن يكون الثوب في البرية وتركه صاحبه، ثم يدفن فلا يبقى منه إلا طرفه، وهذا هو المراد في قوله: (دروس العلم) فإنه خشي أو خاف دروس العلم يعني: اندفانه بحيث لا يبقى منه شيء، وليس المراد بذلك هو فقده من الأرض كلها، وإنما هو اندفانه حتى لا يوجد من يحييه، فإن الشيء إذا وجد من يحييه ويزيل عنه ما يدفنه فإنه يبقى، وهؤلاء هم العلماء الذين يظهرونه للناس، وإذا تركه العلماء اندفن ولا يعلم موضعه.

قال رحمه الله: [حدثنا العلاء بن عبد الجبار، قال: حدثنا عبد العزيز بن مسلم، عن عبد الله بن دينار بذلك يعني حديث عمر بن عبد العزيز إلى قوله ذهاب العلماء.

حدثنا إسماعيل بن أويس، قال: حدثني مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) .

قال الفربري: حدثني عباس، قال: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير عن هشام نحوه].

تقدم معنا الكلام على حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد) وتقدم الإشارة إلى رفع الله للعلماء، وكذلك أيضا آثار قبض العلم والجهل، وما يظهر من ذلك من تبعاته.

باب هل يجعل للنساء يوماً على حدة في العلم

قال رحمه الله: [باب هل يجعل للنساء يوماً على حده في العلم.

حدثنا آدم، قال: حدثنا شعبة، قال: حدثني ابن الأصبهاني، قال: سمعت أبا صالح ذكوان يحدث عن أبي سعيد الخدري قالت النساء للنبي ﷺ: (غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار. فقالت: امرأة واثنين؟ فقال: واثنتين).

حدثنا مُحَمَّد بن بشار، قال: حدثنا غندر، قال: حدثنا شعبة، عن عبد الرحمن بن الأصبهاني، عن ذكوان، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم بهذا، وعن عبد الرحمن بن الأصبهاني قال: سمعت أبا حازم، عن أبي هريرة قال: (ثلاثة لم يبلغوا الحنث)].

في هذا الحديث على ما تقدم تخصيص النبي عليه الصلاة والسلام للنساء يوماً يعلمهن فيه؛ وذلك إبعاداً لهن عن مواضع الرجال، وهذا على ما تقدم وهن في الصدر الأول وفي زمن الطهر والنقاء خصص النبي عليه الصلاة والسلام لهن يوماً، هذا فيه دلالة على حظر الاختلاط في ذلك الزمن.

كذلك أيضاً فإن النبي ﷺ علمهن ما يحتجن إليه من فضائل العمل بأهمية التربية؛ لأن المرأة ربما تمل من تربية أبنائها، أو ترى أن في ذلك استهلاكاً لوقتها، وتفويتاً أيضاً لأجرها أو نحو ذلك، وبين النبي ﷺ كذلك أيضاً ما يتعلق بالمرأة مما يلحقه الله عز وجل عليها من المصائب من موت أبنائها أو بناتها وذلك في بدايتهن، أو ربما مات من ولادته ونحو ذلك، وقلما امرأة من النساء في الصدر الأول إلا ويحصل لها ذلك؛ وذلك لكثرة الأمراض والأسقام وضعف أمور الناس في أمور الولادة والطب وغير ذلك، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يبين أمر الفضل لهن في ذلك تطميناً لهن وتسكيناً في هذا الأمر، وجاء في بعض الروايات: (أن النبي ﷺ قيل له: وواحدة؟ قال: وواحدة)، وهي غير محفوظة.

باب من سمع شيئاً فراجعه حتى يعرفه

قال رحمه الله: [باب من سمع شيئاً فراجعه حتى يعرفه.

حدثنا سعيد بن أبي مريم، قال: أخبرنا نافع بن عمر، قال: حدثني ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: (من حوسب عذب. قالت عائشة فقلت: أوليس يقول الله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق:8] قالت: فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك)].

في هذا فضل عائشة عليها رضوان الله تعالى على غيرها، وهي فقيهة الصحابيات عليهن رضوان الله، ولها أيضاً استدراكات على الصحابة في بعض مسائل الدين من مسائل الأحكام وغيرها؛ وهذا لما خصها الله جل وعلا به من المزايا والقرب من رسول الله ﷺ، وكانت أحضاهن منزلة إليه، وأحبهن أيضاً إليه عليه الصلاة والسلام، فقد كانت حريصة على تتبع ما فاتها من مسائل العلم، والاستفصال فيما تشك فيه، فتسأل رسول الله ﷺ في ذلك مزيد بيان طالبة أن تفهم المسألة على وجهها، وفي هذا أنه ينبغي لطالب العلم إذا سمع شيئاً واستشكله أن يسأل أهل العلم عنه حتى لا يفهم على غير الوجه، بل يفهم على المراد، فهذا من تصحيح العلم وتنقيته؛ حتى لا ينقله على غير وجهه.

ليبلغ العلم الشاهد الغائب

قال رحمه الله: [باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب. قاله ابن عباس عن النبي ﷺ.

حدثنا عبد الله بن يوسف، قال: حدثني الليث، قال: حدثني سعيد، عن أبي شريح أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: (ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به النبي ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد فيها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب)، فقيل لأبي شريح: ما قال عمرو؟ قال: أنا أعلم منك يا أبا شريح لا يعيذ عاصياً، ولا فاراً بدم، ولا فاراً بخربة.

حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، قال: حدثنا حماد، عن أيوب، عن مُحَمَّد، عن أبي بكرة، ذُكر النبي ﷺ قال: (فإن دماءكم وأموالكم)، قال مُحَمَّد وأحسبه قال: (وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب) وكان مُحَمَّد يقول: صدق رسول الله ﷺ كان ذلك (ألا هل بلغت) مرتين].

تقدم أهمية أن يعي الإنسان قول المعلم وانتباهه، وهذا يظهر هنا في قوله: (سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي، حينما تكلم به)، فينبغي للإنسان حال سماعه لشيء من العلم الذي يهمه أن يرعيه سمعه، وأن يكون حاضراً ببصره، وحاضراً بقلبه، وحاضراً أيضاً بجميع حواسه حتى يدرك العلم كما أريد منه أن يدرك.

وحضور الحواس في ذلك حتى ولو كان البصر، فالإنسان يتكلم ويكفيه من ذلك السماع، لكن البصر أيضاً له أثر في الفهم،

فيدرك نطق الحروف من جهة مخارجها، ويزيد في الفهم والإدراك، كذلك أيضاً ربما تشار إشارة أو يرى مثلاً اهتمام الإنسان بالكلام، أو ربما تحدث قائماً، أو تحدث وهو محمر الوجه، أو وهو غاضب لأهمية هذه المسألة، وغير ذلك من الأحوال التي تبين أهمية المسائل ومراتبها بالنسبة للمتكلم.

وكذلك أيضاً في الحديث تحريض النبي عليه الصلاة والسلام للصحابة عليهم رضوان الله على حفظ العلم وتبليغه، أي: أنه ينبغي ألا يقف العلم عندك بل أوصله إلى غيرك، فهذا هو زكاته، وقد تقدم أن النبي ﷺ قال كما جاء في الصحيح: (بلغوا عني ولو آية)، فهذا من زكاة العلم، ويتأكد على الإنسان إذا وجد المحتاج.

وكما أن الزكاة المال هي للمحتاجين، كذلك زكاة العلم أيضاً للمحتاجين من الجهال، فإذا وجد جاهلاً فبمقدار الجهل ومقدار العلم تجب على الإنسان الزكاة، فإذا كان الإنسان صاحب علم وفير، واكتمل نصابه وزاد زادت نسبة الزكاة عنده، فلكل علم زكاة إلا أن العلم يختلف عن المال؛ لأن المال له نصاب، وقبل ذلك لا تجب فيه الزكاة، أما العلم فتجب الزكاة ولو بمقدار يسير من العلم بأن يخرج الإنسان زكاته بالبلاغ؛ ولهذا يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (بلغوا عني ولو آية)، ولو آية واحدة بلغها لغيرك.

باب إثم من كذب على النبي ﷺ

قال رحمه الله: [باب إثم من كذب على النبي ﷺ.

حدثنا علي بن الجعد، قال: أخبرنا شعبة، أخبرني منصور، قال: سمعت ربعي بن حراش يقول: سمعت علياً يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تكذبوا علي فإنه من كذب علي فليلج النار).

حدثنا أبو الوليد، قال: حدثنا شعبة، عن جامع بن شداد، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: قلت للزبير: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان؟ قال: أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول: (من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار).

حدثنا أبو معمر، قال: حدثنا عبد الوارث، عن عبد العزيز، قال أنس: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثاً كثيراً أن النبي ﷺ قال: (من تعمد علي كذباً فليتبوأ مقعده من النار).

حدثنا مكي بن إبراهيم، قال: حدثنا يزيد بن أبي عبيد، عن سلمة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (من يقل علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار).

حدثنا موسى، قال: حدثنا أبو عوانة، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال:

(تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي، ومن رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)].

حينما ذكر المصنف رحمه الله أمر البلاغ وفضله، وأن الإنسان ينبغي أن يعلم غيره، وكذلك أيضاً في إيراده لقول النبي عليه الصلاة والسلام: (ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب) أراد أن يبين أنه ينبغي للإنسان أن يحترز في بلاغه، وألا يسهب، وألا يكثر إكثاراً يدعوه إلى الغلط والوهم بسبب الاستعجال وغير ذلك، فأراد أن يبين خطورة الكذب على رسول الله ﷺ حتى لا يتجرأ عليه الإنسان، فقال عليه رحمة الله: (باب إثم من كذب على رسول الله صلى الله عليه و سلم)، فالكذب على النبي صلى الله عليه وسلم لا يختلف العلماء على أنه كبيرة من كبائر الذنوب، وإنما يختلفون في كفر الكاذب على رسول الله ﷺ، فقد ذهب بعض العلماء إلى كفر من كذب على رسول الله ﷺ متعمداً، وممن ذهب إلى هذا إمام الحرمين الجويني، وخالفه في ذلك جماعة من العلماء، وقالوا: هو كبيرة لا يكفر الإنسان بذلك إلا إذا استحله، هذا إذا كان الكذب على رسول الله ﷺ وأما الكذب على الله عز وجل فهو أشد وأعظم، فينبغي للإنسان أن يحذر من نسبة شيء إلى رسول الله ﷺ لم يتأكد منه، ولا يجوز للإنسان أن يروي حديثاً وهو متردد في ثبوته إلا مع بيانه أو ذكره من غير صيغة الجزم؛ ولهذا يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من حدث عني بحديث وهو يَرى أو يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبَين)، يعني: إما هو أو الذي نقل عنه، فهنا يشتركان في دخولهما في دائرة الكذب على رسول الله ﷺ.

شرح حديث الزبير: (من كذب علي متعمداً...)

وفي قول النبي ﷺ: (من كذب علي متعمداً) فيه رحمة بالأمة أنه ربما يجري على الإنسان من الوهم والغلط ما لم يتعمده ولم يجسر عليه ولم يتساهل فيه، ولكن طرأ عليه وكان مستيقناً، ثم علم بعد ذلك أنه نقل عن النبي عليه الصلاة والسلام ما لم يستوثق منه، فهذا معفو عنه، ويجب عليه أن يصحح من نقل عنه ذلك؛ حتى لا تنقل سنة على غير وجهها.

وإنما عظم الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله عز وجل قبل ذلك؛ لأن الله عز وجل المشرع سبحانه وتعالى، فالكذب عليه يعني: إتيان بدين ونسبة دين إليه لم يشرعه الله سبحانه وتعالى، وهذا أمر على ما تقدم خطير.

أما بالنسبة للحديث الضعيف الذي يضعفه العلماء، نقول: الضعيف على مراتب: إذا كان الحديث ضعيفاً وضعفه شديد فإنه لا يجوز للإنسان أن يرويه إلا لبيان ضعفه، ومن باب أولى الحديث الموضوع والمكذوب والمطروح وغير ذلك، أما ما ضعفه يسير من الأحاديث ومتنه مستقيم فيسوغ للإنسان أن يرويه من غير جزم بصيغة التمريض، فيقال: يُذكر عن رسول الله، أو يُروى عن رسول الله ﷺ، فهذا لا حرج في هذا، ويدخل في ذلك أيضاً رواية الأحاديث يسيرة الضعف في فضائل الأعمال.

شرح حديث أنس: (من تعمد علي كذباً فليتبوأ مقعده من النار)

يقول النبي ﷺ: (من تعمد علي كذباً فليتبوأ مقعده من النار)، (فليتبوأ) يعني: فليتخذ مقعداً له من النار قد هيئ له، وهذا وعيد شديد على من كذب على رسول الله ﷺ، وتبوأ الإنسان منزلة أي: هيأ له منزلة في موضع كذا، (فليتبوأ مقعده من النار) يعني: هيأ لنفسه موضعاً في النار والعياذ بالله بكذبه على رسول الله ﷺ.

شرح حديث أبي هريرة: (تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي)

وقول النبي عليه الصلاة والسلام: [(تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي)] اختلف العلماء في التكني بكنية النبي صلى الله عليه وسلم بأبي القاسم هل النهي في حياته فقط أم بعد حياته أيضاً؟ والأرجح في هذا أنه في زمن النبي ﷺ فقط، ومن العلماء من كره التسمي مع التكني، يعني: أن يتسمى الإنسان بمحمد، وأن يتكنى بأبي القاسم جميعاً، إما أن يتكنى بالنبي صلى الله عليه وسلم بلا تسمي، أو يتسمى بلا تكني، وهذا قول لبعض العلماء.

أما في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (ومن رآني في المنام فقد رآني)، رؤيا النبي ﷺ في المنام حق إذا رآه كما يعلم من حالته، فإن الشيطان لا يتمثل برسول الله ﷺ، فإذا رأى النبي ﷺ في منامه على الصفة المذكورة في الأخبار فهو رسول الله ﷺ، ولكن لو رآه على خلاف الصورة يقال: هذا ليس هو النبي ﷺ.

فالذي يرى النبي عليه الصلاة والسلام على هيئته، ولو لم ير الوجه، أو رآه مدبراً مثلاً أو نحو ذلك، فهذا يقال: إنه النبي ﷺ، وهذا نوع كرامة لرائي النبي ﷺ.

ولكن الإنسان لا يأخذ من المنامات تشريعاً، فيقول: رأيت عليه الصلاة والسلام وأمرني بكذا، ويقول: النبي عليه الصلاة والسلام قال: (من رآني في المنان فقد رآني) إذاً: هذا وحي جديد، انقطع الوحي أو لم ينقطع؟ انقطع الوحي؛ ولهذا أذكر سائلاً يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام فأمرني بكذا وكذا من المحرمات، هذا إما أنه كاذب، أو رأى شيطاناً.

أتى رجل أحد العلماء في ليلة الثلاثين من شعبان، وقال: إني رأيت النبي عليه الصلاة والسلام يقول: غداً من رمضان، فقال العالم: إن الذي رأيته في المنام قال لنا في اليقظة: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته)، أي: لسنا بحاجة إلى مناماتك، أيها أولى خبر اليقظة أو خبر المنام؟ خبر اليقظة، لهذا المنامات لا تنسخ تشريعاً، ولا تأتي بتشريع، ولكن هي مجرد رؤيا تكون فيها تطمين أو فضل أو كرامة للإنسان.

باب كتابة العلم

قال رحمه الله: [باب كتابة العلم].

شرح حديث علي: (لا إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم...)

قال رحمه الله: [حدثنا مُحَمّد بن سلام، قال: أخبرنا وكيع، عن سفيان، عن مطرف، عن الشعبي، عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر].

وهذا فيه إشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يحض أصحابه على الكتابة، ولكن النهي الذي جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام عن الكتابة؛ حتى لا يختلط بالقرآن، فيظن الناس أن هذا قرآناً فيضعونه ضمن سور القرآن، ولكن لما حفظ القرآن ودون كان هناك من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى من يكتب، أو من علم النبي عليه الصلاة والسلام منه أنه يفصل بين القرآن وكلامه عليه الصلاة والسلام، وهذا من الاحتراز للدين، والإجلال والتعظيم لكلام الله سبحانه وتعالى من أن يدخل ما ليس فيه، ولو كان عظيماً من كلام رسول الله ﷺ؛ وذلك لمنزلة كلام الله وعلو شأنه ومرتبته.

وقوله هنا: (فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل) يعني: ما أخذتها عن النبي عليه الصلاة والسلام، المراد بالعقل: هو ما يجب على عاقلة الإنسان من الديات مما يأتي، مثلاً: من دية القتل أو غير ذلك، قال: (وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر) يعني: أحكام هذه المسائل.

شرح حديث أبي هريرة: (إن الله حبس عن مكة القتل...)

قال رحمه الله: [حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، قال: حدثنا شيبان، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: (أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه، فأخبر بذلك النبي ﷺ فركب راحلته فخطب فقال: إن الله حبس عن مكة القتل أو الفيل شك أبو عبد الله، وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي، ولم تحل لأحد بعدي، ألا وإنها حلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه حرام، لا يختلى شوكها، ولا يعضد شجرها، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد، فمن قتل فهو بخير النظَرين إما أن يعقل، وإما أن يقاد أهل القتيل، فجاء رجل من أهل اليمن فقال: اكتب لي يا رسول الله! فقال: اكتبوا لأبي فلان. فقال رجل من قريش: إلا الإذخر يا رسول الله! فإنا نجعله في بيوتنا وقبورنا؟ فقال النبي ﷺ: إلا الإذخر إلا الإذخر)، قال أبو عبد الله: يقال: يقاد بالقاف فقيل لأبي عبد الله: أي شيء كتب له؟ قال: كتب له هذه الخطبة].

في هذا أهمية حفظ العلم وتدوينه سواء كان بحفظ الصدر وضبطه على ما تقدم، فحينما حث النبي عليه الصلاة والسلام وفد

عبد قيس فقال: (احفظوا عني وأبلغوا بها من ورائكم)، هذا حفظ العلم بالصدر، وحفظ الكتابة في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (اكتبوا لأبي شاه)، وكلها من وسائل حفظ العلم وتدوينه، وهي من المسائل المهمة التي ينبغي العناية بها وهي: كتابة العلم وحفظه وتدوينه، خاصة إذا كان عالي السند من كلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ والعلية من الصحابة والتابعين وأضراب هذه القرون المفضلة.

كذلك أيضاً فيه عناية النبي عليه الصلاة والسلام بإصلاح ذات البين خاصة في المسائل العظمى التي تكون بين القبائل، وكذلك أيضاً درء الفتنة وحل المشاكل التي تكون بينهم، فالنبي عليه الصلاة والسلام انتدب إليهم، وبين حكم الله عز وجل في مسائل القتل التي تكون بين الناس، وهذا من الأمور الواجبة على من ولي أمراً من أمور الناس، وكذلك أيضاً على الأسياد والوجهاء والحكام والعلماء أن يصلحوا بين الناس خاصة في المسائل العظام؛ حتى لا تقع الفتنة في الناس فتنتشر ويزداد في ذلك القتل، ويقع في ذلك الفتنة، وما يتبعها من شرور عظيمة. وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال رحمه الله: [حدثنا علي بن عبد الله، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنا عمرو، قال: أخبرني وهب بن منبه، عن أخيه، قال: سمعت أبا هريرة يقول: ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب. تابعه معمر، عن همام، عن أبي هريرة .

حدثنا يحيى بن سليمان، قال: حدثني ابن وهب، قال: أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: (لما اشتد بالنبي صلى الله عليه و سلم وجعه قال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا من بعده.
قال عمر إن النبي صلى الله عليه و سلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط، قال: قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع. فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه و سلم وبين كتابه)].

فهذا الحديث هو تكملة لما يتعلق بمسألة كتابة العلم وتدوينه، وذلك أن الضبط على ما تقدم هو على نوعين: ضبط كتاب، وضبط صدر، وضبط الكتاب هو أدق، ولكن ضبط الصدر هو أنفع لصاحبه باعتبار أن العلم معه لا يحتاج إلى تقريب ومعرفة مواضعه، بل هو حاضر معه في ذهنه؛ ولهذا ذكر أبو هريرة عليه رضوان الله تعالى أن عبد الله بن عمرو عليه رضوان الله أكثر منه حديثاً؛ ذلك لأنه كان يكتب ولا يكتب أبو هريرة عليه رضوان الله، وهذا ظن من أبي هريرة عليه رضوان الله، وإلا فأحاديث أبي هريرة أكثر من أحاديث عبد الله بن عمرو، فربما كان عبد الله بن عمرو يكتب ولكن ليس بهذه الكثرة، فظن أبو هريرة عليه رضوان الله أن ما دونه عنه أكثر مما حفظه أبو هريرة، وربما ظن أن حفظه ربما ينسى بعضه من جهة البلاغ، وأما من جهة العد فأحاديث أبي هريرة الموجودة سواء في مسند الإمام أحمد، أو في مجموع السنة هي أكثر من أحاديث عبد الله بن عمرو كالكتب الستة وغيرها.

ثم ذكر بعد ذلك حديث عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده))، يعني: من ذلك البيان، فالله سبحانه وتعالى حينما لم يقدر لنبيه عليه الصلاة والسلام ذلك الكتاب إن شاء الله أنه خير لهذه

الأمة، فالله عز وجل لا يقدر لها بإذنه إلا خيراً.

الدرس الرابع

تعليم الناس ووعظهم لا يختص بوقت دون وقت فينصح العالم ولو كان ليلاً، ولا يكره ذلك، ويبذل العلم في أي مكان سواء كان في المسجد أو أماكن الاجتماع كوقت رمي الجمار أو في المدارس ونحو ذلك، كذلك يبذل العلم على أي حال سواء كان السائل قائماً أو جالساً ولا يأنف من ذلك، وهناك آداب للعلم كالإنصات للعالم، والتواضع وعدم الافتخار، وألا يستحي الإنسان من السؤال عن أمور دينه، وأن يكل الإنسان العلم إلى الله سبحانه، ولا يدعي معرفة العلوم وحده، وينبغي للعالم أن يتحلى بالحكمة والسياسة الشرعية فيراعي باب المصالح والمفاسد عند نصحه وتعليمه.

باب العلم والعظة بالليل

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

قال رحمه الله: [باب العلم والعظة بالليل.

حدثنا صدقة، أخبرنا ابن عيينة، عن معمر، عن الزهري، عن هند، عن أم سلمة وعمرو ويحيى بن سعيد، عن الزهري، عن هند، عن أم سلمة قالت: (استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة فقال: سبحان الله! ماذا أنزل الليلة من الفتن؟ وماذا فتح من الخزائن؟ أيقظوا صواحب الحجَر، فرب كاسية في الدنيا، عارية في الآخرة)].

في هذا الحديث أن الإنسان لا يؤخر الموعظة عن موجبها أو حضورها، فالنبي ﷺ وعظ بعض نسائه في وقت متأخر من الليل، وذلك حينما استيقظ ﷺ ذات ليلة، فالموعظة يقولها الإنسان لأهله، ويقولها الإنسان في طريقه، وكذلك أيضاً في جلوسه، ما وجد داع لها؛ لهذا نقول: إن الموعظة لا زمن لها، وإنما مناسبة الوقت؛ ولهذا رسول الله ﷺ دعا ووعظ أزواجه، ودعا عليه الصلاة والسلام إلى إيقاظهن للصلاة بالليل.

وفي هذا أيضاً أن كثرة العبادة سبب لستر الله على عباده؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: (أيقظوا صواحب الحجر) حتى يصلين، والسبب في هذا (فرب كاسية في الدنيا، عارية في الآخرة)، يعني: يرى منها ومن الرجل الستر وحسن الحال يتعرى يوم القيامة بالفضيحة؛ ولهذا نقول: إن الله عز وجل يستر عبده يوم القيامة، وكذلك في الدنيا بطاعته له، والله سبحانه وتعالى والله جل وعلا حيي ستير لا يفضح عبده إلا بقيام موجب لذلك.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (ماذا أنزل الليلة من الفتن؟ وماذا فتح من الخزائن)، يعني: أن النبي ﷺ أوحى الله عز وجل إليه من أمور الفتن والأحوال والأهوال التي طرأت عليه في تلك الليلة، فحدث بها رسول الله ﷺ وحض الأقربين، وفي هذا أن

النبي ﷺ دعا الأقربين منه وهن أزواجه عليهن رضوان الله؛ لهذا ينبغي للإنسان أن يتعاهد أهله، وأن يتعاهد أبناءه وبناته بالموعظة والتذكير فهذا أولى ما يقع عليه التكليف؛ ولهذا الله جل وعلا أول ما أمر رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:214].

باب السمر في العلم

قال رحمه الله: [باب السمر في العلم.

حدثنا سعيد بن عفير، قال: حدثني الليث، قال: حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن سالم وأبي بكر سليمان بن أبي حثمة، أن عبد الله بن عمر قال: (صلى بنا النبي ﷺ العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام فقال: أرأيتَكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد) .

حدثنا آدم، قال: حدثنا شعبة، قال: حدثنا الحكم، قال: سمعت سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: (بت في بيت خالتي ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ عندها في ليلتها، فصلى النبي ﷺ العشاء، ثم جاء إلى منزله فصلى أربع ركعات، ثم نام ثم قام، ثم قال: نام الغليم، أو كلمة تشبهها، ثم قام فقمت عن يساره، فجعلني عن يمينه، فصلى خمس ركعات، ثم صلى ركعتين، ثم نام حتى سمعت غطيطه أو خطيطه ثم خرج إلى الصلاة)].

في قول المصنف رحمه الله: (باب السمر في العلم) جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام (أنه نهى عن النوم قبل صلاة العشاء وعن الحديث بعدها)، وهذا مخصص ومقيد لما أطلق في النهي، أن السمر في العلم إذا كان لا يفوت على الإنسان واجباً فإنه مباح؛ ولهذا كان النبي ﷺ يسامر بعض أصحابه بالعلم، وربما بعض أزواجه، وقد جاء عن عائشة عليها رضوان الله تعالى: (أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يحدثها قبل أن ينام)، وكذلك أيضاً ما يتعلق بسمر المعلمين مع المتعلمين بشيء من العلم ومعرفة الأحكام فهذا لا يدخل في دائرة نهي النبي ﷺ عن الحديث بعد صلاة العشاء، وإنما المراد بالنهي عن ذلك هو أن يسمر الإنسان في اللهو واللغط والحديث؛ لأنه يفوت عليه سنة فطرية وفريضة شرعية، السنة الفطرية: هي النوم لأن الله عز وجل جعل الليل سكناً، والفريضة الشرعية هي صلاة الفجر، فلو قام الإنسان الليل كله، وتسبب قيامه بتفويت صلاة الفجر كان مرتكباً لإثم؛ لأن الفريضة ولو قلت أعظم من النافلة ولو كثرت، والله عز وجل ما فرضها إلا لبيان منزلتها وعظم أثرها على الإنسان ثواباً عند الله، فالله يفرضها على عباده ليرحمهم إن امتثلوا.

باب حفظ العلم

قال رحمه الله: [باب حفظ العلم.

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، قال: حدثني مالك، عن ابن شهاب، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون أكثر أبو

هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة:159] إلى قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:160] إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفْق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون.

حدثنا أحمد بن أبي بكر أبو مصعب، قال: حدثنا مُحَمَّد بن إبراهيم بن دينار، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قلت: (يا رسول الله! إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه! قال: ابسط رداءك، فبسطته، قال: فغرف بيديه، ثم قال: ضمه. فضممته فما نسيت شيئاً بعده).

حدثنا إبراهيم بن المنذر، قال: حدثنا ابن أبي فديك بهذا، أو قال: (غرف بيده فيه).

حدثنا إسماعيل، قال: حدثني أخي، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم].

في هذا فضل الحفظ ومنزلته، وبهذا امتاز جماعة من الصحابة كأبي هريرة عليه رضوان الله؛ وذلك لدعاء النبي ﷺ له بالحفظ، فكان كذلك أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ وأكثرهم حديثاً عنه، فأثمر ذلك فضلاً وخيراً وكذلك أيضاً إحساناً على هذه الأمة بأن نقل لها وحيها عن رسولها ﷺ.

وكذلك أيضاً فيه أن أبا هريرة عليه رضوان الله تعالى أراد أن يبين سبب إكثاره للحديث، وأن هذا الإكثار ربما يحمله البعض على شيء من الظنة كما يزعم ذلك أهل الأهواء، فأهل الأهواء من الرافضة وغيرهم يتهمون أبا هريرة عليه رضوان الله بالكذب لكثرة حديثه، وقالوا: كيف يحفظ هذه الكثرة؟ نقول: من دعا له النبي عليه الصلاة والسلام بالبركة في الحفظ فإن الحفظ أقرب إليه من غيره، وهذا أيضاً من أمور الإعجاز، فالذي أنطق الله عز وجل له الحجر، وتكلمت البهائم بين يديه، وأسرى الله عز وجل به إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السماء، أليس هذا إعجاز أعظم من أن يدعو لأحد أن يحفظ فيحفظ؟ نعم أعظم.

ولهذا نقول: إن هذا من الكرامات التي أوتيها أبو هريرة عليه رضوان الله ببركة دعاء رسول الله ﷺ له، وفي هذا أيضاً أن العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فأبو هريرة انقطع للجلوس عند رسول الله صلى لله عليه وسلم، فكان يكتفي بملء بطنه لا يتزود من ذلك، وليس لديه شيء من متاع الدنيا فتفرغ لذلك، فأخذ خير الإرث وهو العلم.

لهذا ينبغي للمتعلم إذا أراد علماً وأراد فهماً صحيحاً ودقيقاً أن يعلم أنه بقدر ما تعطي العلم يعطيك، بقدر ما تعطي العلم من فراغ الذهن وخلوه من جهة الوقت فإنه يعطيك بمقدار ذلك.

كذلك أيضاً فيه ورع أبي هريرة عليه رضوان الله من حبس الحديث وكذلك إكثاره، فهو أراد أن يبين سبب كثرة حديثه، وقال

إنها على سببين:

السبب الأول هو: أنه كان يحفظ ولا يحفظون، ويحضر ولا يحضرون أي أنه يتفرغ.

السبب الثاني: أنه يتورع من كتمان ما لديه من حديث، فيكثر من ذلك حتى يفرغ ما لديه من علم، فإذا قبضه الله عز وجل قد أدى ما عليه، وقد أبرأ ذمته عليه رضوان الله تعالى بما حمل من حديث عن رسول الله ﷺ.

وفي هذا أيضاً حرص الصحابة عليهم رضوان الله تعالى على طلب الدعاء من رسول الله ﷺ، وإجابة النبي عليه الصلاة والسلام لهم في ذلك، وأما ما بثه أبو هريرة فهو أحاديث الأحكام، ومسائل الدين، ومن أمور الإيمان والأصول والفروع، وما يتعلق بأمور الآداب، وأما ما لم يبثه فهي أحاديث الفتن من الإخبار عن نوازل أو أسماء أو نحو ذلك، فربما حدث النبي ﷺ أبا هريرة وغيره بشيء من ذلك، فحبس أبو هريرة ذلك خشية الفتنة؛ ولهذا كان يلمح في بعض الأحاديث عليه رضوان الله تعالى كما قال: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان، فتوفي عام تسعة وخمسين قبل إمرة يزيد، وهذا إشارة إلى أنه يعلم أموراً أعلمها الله عز وجل إياه بواسطة نبيه ﷺ، فكان لا يريد الإخبار بشيء من الفتن، هو يريد أن يتعامل الناس معها كحادثة وعابرة، وأن لا يتسبب بشيء من اضطراب الناس وأحوالهم، فربما لحقه شيء من الأذية في ذلك؛ ولهذا قال: (وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم).

ونقول: هل للإنسان أن يحبس شيئاً من أحكام الدين فيفوت على الناس دينهم فيقع في ذلك لبس إذا خشي على نفسه يجوز أو لا يجوز؟ لا يجوز، هل الذي أخفاه أبو هريرة عليه رضوان الله من أمور الدين أو من أمور الأخبار؟ من أمور الأخبار، لو كان من أمور الدين لانتهى تبليغه لها بزمانها، أما هذه فقد بقيت معه إلى رأس الستين، ثم جاءت بعدها، أين الدين؟ الدين لا يذهب وهو باقٍ محفوظ، إذاً: هذه نوازل وحوادث تتعلق بزمن، أما دين الله عز وجل فلا يجوز للإنسان أن يكتم بحال بيان مسائل الدين وأموره.

باب الإنصات للعلماء

قال رحمه الله: [باب الإنصات للعلماء.

حدثنا حجاج، قال: حدثنا شعبة، قال: أخبرني علي بن مدرك، عن أبي زرعة، عن جرير أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع: (استنصت الناس، فقال: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)].

في قوله هنا: (باب الإنصات للعلماء) إشارة إلى أهمية الأدب بالإنصات وعدم انصراف الذهن، أو انشغال القلب، أو انصراف البصر والسمع؛ ولهذا كان الصحابة عليهم رضوان الله تعالى إذا قام فيهم النبي ﷺ خطيباً قالوا استقبلناه بوجوهنا، استقبلوه بالوجوه، وذلك أرعى إلى الفهم والسمع، وكذلك أدعى لسماع الحديث من المحدث، بخلاف إذا كان الإنسان منصرفاً بسمع أو

منشغلاً بأمر آخر فإن هذا مدعاة إلى عدم حرص العالم على التعليم، وعدم إدراك المتعلم للعلم كما قاله العالم، والنبي صلى الله عليه وسلم في قوله هنا قال في حجة الوداع: (استنصت الناس) يعني: اطلب منهم أن ينصتوا لما سأقوله لهم، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يطلب منه أن يستنصت الناس بحال ورود اللغط أو الحديث، أو ربما لانشغال بالحديث فيما بينهم، لأهمية ما يريد النبي ﷺ أن يعلمهم إياه.

باب ما يستحب للعالم إذا سئل عن أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله

قال رحمه الله: [باب ما يستحب للعالم إذا سئل عن أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله.

حدثنا عبد الله بن مُحَّد، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنا عمرو، قال: أخبرني سعيد بن جبير، قال: قلت: لابن عباس إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر؟ فقال كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قام موسى النبي خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال أنا أعلم، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال: يا رب وكيف به؟ فقيل له: احمل حوتاً في مِكتَل، فإذا فقدته فهو ثم، فانطلق وانطلق بفتاه يوشع بن نون، وحمل حوتاً في مكتل، حتى كانا عند الصخرة وضعا رءوسهما وناما، فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وكان لموسى وفتاه عجباً، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: (أئتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً)، ولم يجد موسى مساً من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به، فقال له فتاه: (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت)، قال موسى: (ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصاً)، فلما انتهيا إلى الصخرة إذ رجل مسجى بثوب، أو قال: تسجى بثوبه، فسلم موسى، فقال الخضر: وإني بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، (قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رُشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً) يا موسى! إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه لا أعلمه، قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما، فعرف الخضر فحملوهما بغير نَول فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما، فعرف الخضر فحملوهما بغير نَول، فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى! ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر، فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه، فقال موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ (قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت)، فكانت الأولى من موسى نسياناً، فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه، فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: (أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟) (قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟) قال ابن عيينة: وهذا أوكد، (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه)، قال الخضر: بيده فأقامه، فقال له موسى: (لو شئت لاتخذت عليه أجراً)، (قال: هذا فراق بيني وبينك). قال النبي صلى الله

عليه وسلم: يرحم الله موسى لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما)].

مناسبة الحديث لهذه الترجمة ظاهر، وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما سئل في هذا الخبر عن الأعلم؟ ما وكل العلم إلى الله سبحانه وتعالى ابتداء بل قال أنا أعلم، فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يرد العلم إليه؛ لهذا مهما بلغ علم الإنسان فإنه يكل العلم إلى الله سبحانه وتعالى ويضع العلم في موضعه، كذلك أيضاً أن يعلم أن العلم ليس بالشهرة ومعرفة الناس له، بل ربما يوفق الإنسان إلى شهرة، وربما لا يوفق إليها؛ ولهذا ربما يكون الإنسان له أصحاب وتلاميذ ينقلون عنه علمه.

فالعلم يكله الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى، وإذا سئل عن أعلم الناس فينبغي له ألا يجيب لأن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، وربما كان في أقصى الأرض، ومعلوم أن موسى عليه الصلاة والسلام من جهة الفضل أفضل من الخضر؛ وذلك لمقام النبوة، وهو من أولي العزم، واختلف العلماء في أمر الخضر وحاله ومقامه في باب النبوة، ولهذا نقول: إن مقام موسى في ذلك أفضل، وأن الإنسان أيضاً قد يكون أزكى وأكثر تعبداً وقرباً إلى الله عز وجل وغيره أعلم منه.

وكذلك أيضاً فيه تواضع الفاضل مع المفضول، وذلك في تواضع موسى مع الخضر وإنصاته واستماعه إليه.

كذلك أيضاً فيه عذر المعلم للمتعلم في خطئه الأول وخطئه الثاني، كما وقع ذلك بين موسى عليه الصلاة والسلام مع الخضر عليه السلام.

باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً

قال رحمه الله: [باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً.

حدثنا عثمان، قال: أخبرنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: (يا رسول الله! ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً، ويقاتل حمية، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً، فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل)].

وفي هذا أهمية بذل العلم على أي حال، سواء كان الإنسان جالساً والسائل قائماً، أو كان العكس في ذلك، فإن الإنسان يؤدي العلم على ما يقوم من أسبابه، وقد جاء كل ذلك عن رسول الله ﷺ، لكن الأصل فيه علو المعلم على المتعلم مكاناً إذا كان أنفع للبلاغ، وأما في غير ذلك فالأصل أن يكون المعلم كحال المتعلم من جهة المكان، والناس في ذلك سواسية إلا في أمر البلاغ حتى يرى الإنسان في حال تعليمه للناس ويرونه إذا كانوا كثراً فيسمعون عنه، بخلاف لو كان على الأرض والناس حوله كثير فإنهم لا يدركون؛ لهذا النبي ﷺ كان يقف في الجمع على المنبر، وفي غير الجمع يجلس النبي عليه الصلاة والسلام في مسجده على الأرض؛ لأن من حوله أقل من ذلك.

ولهذا نقول: إن بلاغ العلم لا علاقة له بقيام ولا بجلوس، وإنما هو ما قام موجبه فإن الإنسان يؤديه؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام أفتى وعلم وهو على الراحلة، وأفتى وعلم وهو قائم، وأفتى عليه الصلاة والسلام وعلم وهو جالس، بل أفتى رسول الله ﷺ وهو متكئ ومضطجع، وكذلك أيضاً فإن الإنسان يعلم غيره على أي حال كان المتعلم، سواء كان قائماً أو جالساً كما في هذا الحديث، وألا يأنف الإنسان ويقول إن فلاناً يسألني وهو قائم وأنا جالس، عليه أن يجلس ليأخذ العلم، لا، بل نقول: الأصل في هذا اللين مع الناس واللطف معهم، فربما كان الإنسان منشغلاً، أو مثلاً لديه شيء من أمور حياته، أو أمور دينه ودنياه فيعذر الإنسان، وذلك بإجابته على أي حال أراد.

نقول: فلان عالم، فلان فقيه، فلان مفسر ونحو ذلك، ولكن لا نقول: فلان أعلم الناس بالتفسير، أعلم الناس بالفقه، أعلم الناس بالحديث، لا نعلم هذا، نقول: لفظ أعلم هو تفضيل له على غيره هل عرفت غيره؟ أنت عرفته، لكن هل عرفت غيره؟ لا يستطيع الإنسان.

باب السؤال والفتيا عند رمي الجمار

قال رحمه الله: [باب السؤال والفتيا عند رمي الجمار.

حدثنا أبو نعيم، قال: حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، عن الزهري عن عيسى بن طلحة، عن عبد الله بن عمرو قال: (رأيت النبي ﷺ عند الجمرة وهو يسأل، فقال رجل: يا رسول الله! نحرت قبل أن أرمي؟ قال: ارم، ولا حرج. قال آخر: يا رسول الله! حلقت قبل أن أنحر؟ قال: انحر، ولا حرج، فما سئل عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: افعل ولا حرج)].

في هذا أن النبي ﷺ لا يمنعه شغله، وكذلك لا يمنع الصحابة عليهم رضوان الله تعالى شغلهم عن سؤال العلم، وكذلك تعليمه، فالنبي ﷺ كان عند الجمار، وهي موضع انصراف مع الوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة، ثم وقف النبي عليه الصلاة والسلام للناس يعلم الجاهل منهم، وكذلك أيضاً لم يمنع الناس شدة الزحام واللأواء والشدائد أن يستبرئوا لدينهم، فيعرفوا ما يجهلون من مسائل الدين، وهذا فيه أهمية السؤال عما يجهل الإنسان مهما كانت المشقة، ومهما كانت الصعاب، كذلك فيه أن العالم يبلغ المتعلم والسائل والجاهل في الدين إذا سأله مهما كانت المشقة عليه؛ لأن الإمساك عن الجواب فيه أعظم مشقة عند الله وهي كتمان الحق وكتمان الدين، فلا بد من بيانه.

وفي هذا الحديث أيضاً من الفوائد أن وقوف النبي ﷺ عند الجمرة وهو يسأل فيه إشارة إلى أنه ينبغي للعالم أن يأتي إلى مجامع الناس، ومعلوم أن الجمرة هي موضع لوجود للناس وهو موضع يختلف عن موضع مزدلفة وعرفة، موضع عرفة ومزدلفة هو موضع مبسوط من الأرض، وهو عدة كيلو مترات، الناس يتوزعون فيه، بخلاف الجمرة فإنها موضع محدد يأتي الناس إليه؛ ولهذا النبي ﷺ يأتي في مثل هذا الموضع؛ لأنه مجمع للناس، فربما يجهلون مواضع الدين فيه، كذلك أيضاً ينبغي للعالم والمصلح والموجه والمربي أن يأتي إلى مواضع اجتماع الناس فيعلمهم، وذلك في المدارس وفي الجامعات وفي مواضع اجتماع الناس، سواء كان في

سوقهم، أو في مواضع اجتماعهم في الميادين وغير ذلك حتى يقوم بتوجيه الناس إلى الحق.

باب قول الله تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)

قال رحمه الله: [باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85] .

حدثنا قيس بن حفص، قال: حدثنا عبد الواحد، قال: حدثنا الأعمش سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: (بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه لا يجيء فيه بشيء تكرهونه. فقال بعضهم: لنسألنه، فقام رجل منهم: فقال يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقال: إنه يوحى إليه، فقمت، فلما انجلى عنه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85]).

قال الأعمش: هكذا في قراءتنا].

هذا في العلم الذي يؤتاه الإنسان، مهما بلغ الإنسان من العلم يعلم أن هذا العلم قليل بالنسبة لعلم الله سبحانه وتعالى، وكلما كان الإنسان أوعى لهذا المعنى كان أدفع لموضع الكبر الذي يقع في النفوس، فربما يتعلم الإنسان علماً فيغتر به، ويحمله ذلك على التكبر على الناس وعلى ظلمهم والبغي عليهم، وعدم الرحمة أيضاً بالجاهل، وازدرائه وتنقصه وعدم الاكتراث به، وهذا مناف لقيمة العلم، فالإنسان كلما كثر علماً تواضع.

ولهذا يقال: إن الإنسان إذا ثقل علماً انخفض وتواضع للناس، كحال السنابل، السنبلة إذا امتلأت هل تبقى شامخة أو منحنية؟ منحنية، والفارغة؟ تبقى شامخة، كذلك الجهال يعتدي إذا لم يكن لديه شيء؛ لهذا ينبغي للإنسان أن يعلم أنه كلما ازداد علماً ازداد تواضعاً؛ لأنه كلما استكثر علماً علم أن ثمة مفقود لديه، فهذا يورثه تواضعاً ومعرفة بالنقص الذي لديه.

لهذا من أمور التواضع أن يفكر الإنسان بمساحة جهله، لا بمساحة علمه، فهذا يورثه تواضعاً، أما الذي يفكر بمساحة علمه يظن أنه استوعب كل شيء، وليس عنده شيء، هذا يورثه كبراً؛ ولهذا الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85]، فالعلم لله جل وعلا، فالله سبحانه وتعالى له العلم المطلق في هذا سبحانه وتعالى، يعلم الله جل وعلا ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، حتى الأمور المتناقضة أو المستحيلة يعلم الله عز وجل لو قدر كونها ما هي آثارها؟ وهذا هو العلم المطلق لله سبحانه وتعالى، فإذا علم الإنسان سعة علم الله سبحانه وتعالى استصغر نفسه، وإذا استكثر من العلم واستزاد منه علم أن ما لديه من العلم إنما هو شيء يسير وهو بحاجة إلى الاستزاده؛ لأن الإنسان إذا فكر بمساحة جهله استزاد علماً، وإذا فكر بمساحة علمه ازداد في ذلك كبراً واكتفاء بما لديه.

باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه

قال رحمه الله: [باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه.

حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود، قال: قال لي ابن الزبير: كانت عائشة تسر إليك كثيراً، فما حدثتك في الكعبة؟ قلت: قالت لي: قال النبي ﷺ: (يا عائشة! لولا قومك حديث عهدهم – قال ابن الزبير: بكفر – لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين، باب يدخل الناس، وباب يخرجون) ففعله ابن الزبير].

في هذا أن النبي ﷺ ينظر إلى آثار الأفعال قبل الأفعال، وذلك من الحكمة وبعد النظر، فالنبي ﷺ ما ينظر إلى الحق مجرداً، بل ينظر إلى موضع وضعه وآثاره بعد ذلك، وهذا من الحكمة والدراية وسعة العلم والمعرفة أن الإنسان إذا ملك دليلاً وملك الحجة لا يعني من ذلك أنه يحسن الوضع، فربما يملك الدليل والحق لكنه لا يحسن وضعه، فيحدث من ذلك جملة من المفاسد.

ولهذا النبي ﷺ كان أعلم الناس بالحق، وأعلم الناس بمواضع الحق، وما كل شيء حسن يناسب وضعه في كل مكان؛ لأنه ربما إذا وضعه في موضع أساء إليه وهو ذاته حسن، فمثلاً: النبي ﷺ لما قال له عمر بن الخطاب عليه رضوان الله: (دعني أضرب عنق هذا المنافق) يعني: عبد الله بن أبي، قال النبي ﷺ: (أتريد أن يتحدث الناس أن مُحَمَّداً يقتل أصحابه)، إذاً: نظر إلى آثار الفعل قبل الفعل، ثم أمسك عن الفعل، وهذا من الحكمة والدراية أن ينظر الإنسان إلى الآثار، ثم ينظر إلى الفعل، ثم يوازن في ذلك، وليس كل أثر يحجم الإنسان عن الفعل، ولكن إذا عظم الأثر وأصبحت مفسدته أعظم من إنزال الفعل فإنه يمسك، وإذا كانت مفسدته دون ذلك وجب عليه أن يضع الحق في الناس.

ولهذا النبي ﷺ قاتل طوائف من المشركين، وحصل من ذلك قتل لأصحابه بالدعوة إلى التوحيد، هذه مفاسد أو ليست مفاسد؟ هي مفاسد، ولكن المصلحة أعظم من تلك المفاسد أم لا؟ أعظم، لكن تلك المفاسد لو نظر إليها منفردة تحولت إلى مصالح، وهذا ينظر فيه إلى الموازنة، ليس إلى نظر الإنسان وحسه وعاطفته ورغبته الذاتية، بل ينظر إلى الموازنة الشرعية، كذلك ينبغي للعالم ألا يضع الحجة إذا بلغت إليه أو وصلت إليه في أي موضع شاء، بل لها مواضع، ربما ما يناسب في موضع لا يناسب في موضع آخر، قد روى القاضي ابن أبي يعلى في الطبقات أنه جاء رجل إلى الإمام أحمد فقاله له: إن أبي أمرني أن أطلق زوجتي، فقال رحمه الله: لا تطلق، قال: ألم يأمر عمر ابنه عبد الله بن عمر أن يطلق زوجته فطلقها؟ قال له الإمام أحمد: حتى يكون أبوك كعمر .

إذاً: ما الفرق بين هذا وهذا؟ عمر بن الخطاب إمام محدَث وملهم، ربما أراده أن يطلقها لأنه يرى أن الأصلح له غيرها، فهو ينظر لحض نفسه أو لحض غيره؟ لحض غيره، فهو أعلم وأبصر، لكن يأتي ابن ويقول: والدي أمرني أن أطلق زوجتي هل أطلقها، تستدل بهذا أم لا؟ ربما تكون زوجته لم تكرم أباه، أو ربما لم تصنع له شاياً، والرجل هذا كبير في السن فيقول مثلاً امتعنت ولم تقدرني، أو لم تقبل رأسي، أو لم تفتح لي باباً، أو لم تبتسم في وجهي إذاً فطلقها، هل هذا لحض النفس أو لحض الغير؟ لحض

النفس؛ ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: لا تطلق. حينما استدل عليه بالدليل، أشار الإمام أحمد أنه يعلم ولكن أبوك يختلف عنه.

لهذا نقول: إن وضع الدليل الحق في أي موضع خطأ أو ليس بخطأ؟ خطأ، وإن كان في ذاته حق؛ ولهذا الفقيه هو الذي ينظر إلى الدليل وينظر إلى موضعه الذي هو عليه، فقد يكون في ذاته حق، وهذا كما أنه في المعاني كذلك أيضاً في الأمور المحسوسة، فمثلاً: يرى الإنسان في بيته اللوح جميلاً، والبرواز حسناً أو نحو ذلك، لكنه يرى أنه إذا وضعه في موضع كان جميلاً، وإذا وضعه في موضع آخر قبيح، أليس كذلك؟ وهل حسنه في ذاته مسوغ لئن تضعه في أي مكان؟ لا، لابد من النظر إلى السياق.

ولهذا نقول: ليس كل من ملك الحجة يحسن وضعها وتدبيرها؛ فهناك كثير من الناس لديه من الأدلة، ولكنه يجهل الواقع، وما هي الآثار، وهناك من يعرف الواقع ويجهل الدليل؛ ولهذا نقول: لا بد من الموازنة بين معرفة الدليل الذي لا يقاومه شيء من الآثار، ومعرفة الآثار كذلك والدواعي التي تحدث بعد ذلك، وهذا من الحكمة التي يؤتيها الله عز وجل عباده.

وهذا ظاهر أيضاً في حديث عائشة حينما أمسك النبي عليه الصلاة والسلام عن هدم الكعبة، وجعل لها بابين لأن قومها حدثاء عهد بجاهلية، يعني: دخلوا الإسلام قريباً، والنبي عليه الصلاة والسلام لو فعل هذا الفعل لحصلت فتنة، لأن لديهم تعظيم للبيت وغلو في هذا الباب وهو حجر؛ ولهذا أشركوا مع الله عز وجل، وظنوا أن عمارة البيت الحرام وسقاية الحاج أعظم من توحيد الله، هذا من الخلط الذي لديهم؛ ولهذا أنزل الله عز وجل على نبيه عليه الصلاة والسلام قوله جل وعلا: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ﴾ [التوبة:19]، يعني: أن هذه الأمور إنما وقع خلط فيها عند كفار قريش، وبقي لديهم شيء من ذلك، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يترك مثل هذا الأمر؛ لأنه ليس من أمور الإسلام العظيمة، أو الأصول التي يقدح في ذين الإنسان لو تركها، وإنما هي من المصالح، وأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يجعل للكعبة بابين؛ حتى لا يظن أن ما غاب عنهم حُبس عنهم لأجل مزيته، ولا يدخله إلا الكمل من الناس، والصلاة في جوف الكعبة كالصلاة بجوار الكعبة، هي واحدة، والرجل المجرم الفاسق لو كان داخل الكعبة فهو على حاله فاسق مجرم، والرجل الصالح العابد العالم سواء كان داخل الكعبة أو خارج الكعبة هو صالح وعالم؛ ولهذا النبي ﷺ أراد أن يجعل بابين للكعبة يمر الناس ويدخلون ويخرجون منها حتى يعلموا أن الكعبة داخلها وجوارها من جهة الأمر سواء.

ومن هنا تجد أن العلماء يرون أن الصلاة في أي جهة من جهات البيت واحدة، وإنما العبرة في ذلك بالدنو والقرب من الكعبة، والنبي ﷺ إنما صلى بجوفها وخشي عليه الصلاة والسلام أن يظن الناس أن هذا الفعل هو عبادة مقصودة، ورسول الله ﷺ حينما فتح مكة دخل الكعبة وصلى بها نهاراً، النبي عليه الصلاة والسلام، من ذلك الاحتجاب عن الناس، ومن ذلك أيضاً الانكسار والتواضع.

وفي هذا حكمة ولطيفة ربما أنتم تحتاجونها في مثل هذا البلد، وهو ليبيا بعد انتصار وتمكين يوجد هناك من سبقوا إليكم بالظلم والقتل والتشريد وسلب الأموال، وكذلك اختلاط كثير من الناس مثلاً بنظام سابق، أو غير ذلك وربما توجد حسابات قديمة،

النبي ﷺ أُخرج من أين؟ من مكة، وأوذي عليه الصلاة والسلام الأذى الشديد في مكة، ووقعوا عليه الصلاة والسلام في عرضه، وقاموا بإخراجه وطرده من بلده، ثم رجع النبي عليه الصلاة والسلام منتصراً إليها، يقول عبد الله بن عمر عليه رضوان الله: أول ما دخل النبي عليه الصلاة والسلام الكعبة، فبقي فيها نهاراً يصلي لله. وجاء في الحديث عند ابن إسحاق: (أن النبي عليه الصلاة والسلام دخل مكة وقد طأطأ رأسه حتى إن عثلونه ليمس الرحل تواضعاً لله)، حتى لا يشعر الإنسان بشيء من نشوة الانتصار فيظلم؛ ولهذا النبي ﷺ أكثر من الصلاة والسجود؛ لأن الصلاة تدعو الإنسان إلى شيء من الانكسار والتواضع؛ لأنه في موضع نصر، الثورات فيها خير، لكن لها ثمرات ربما تكون سيئة في بعض الأحوال، وهو أن الإنسان إذا نصره الله عز وجل ربما لنشوة الانتصار يظلم ويبغي؛ ولهذا رسول الله ﷺ كسر نفسه لله عز وجل تواضعاً وشكراً للمنعم، وما غاب عنه أن الله عز وجل امتن عليه بهذا، فغلب الامتنان لله سبحانه وتعالى على مثل هذا الأمر، فما قال ﷺ للذين كانوا في مكة اخرجوا واحداً واحداً، أريد أن أصفي الحسابات، من الذي وضع علي كذا؟ من الذي سبني؟ من الذي قال؟ ومن الذي قال؟ وإنما أراد إصلاح الأمر العام، لم يدافع النبي عليه الصلاة والسلام عن شخصه وذاته، وإنما أراد النظر إلى المستقبل، وإقامة دين الله عز وجل، وإقامة العدل.

ولهذا رسول الله ﷺ لما جاءه وحشي وقد قتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام، وأخوه من الرضاعة، حتى إنه حينما علم النبي عليه الصلاة والسلام بمقتله جاء إليه عليه الصلاة والسلام، فرآه وقد مُثل بجثته تأثر النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: (والله لا أصاب بمصيبة بعدك). وكان وحشي في الطائف فرجع (وجاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام لما أسلم جاء إلى النبي ووقف عنده، فقيل له: وحشي، فرفع إليه النبي ﷺ بصره، فقال عليه الصلاة والسلام: أأنت الذي قتلت حمزة؟ لشدة ذلك على وحشي قال: هو ما قلت. يعني لا أستطيع أن أقول: أنا قتلت هذا. فالنبي عليه الصلاة والسلام أطرق فقال: إن استطعت ألا تريني وجهك فافعل)، يعني: لا أريد الانتصار لنفسي فأنت دخلت الإسلام، وأعلنت التوبة والرجوع والانضمام إلى حياض الإسلام؛ ولهذا وحشي انصرف لكي لا يراه النبي عليه الصلاة والسلام حتى لا يذكره بذلك الكرب الذي وقع فيه، حتى لما ظهر مسيلمة الكذاب يقول وحشي: فانتدبت إليه لعلي أكفر بقتله قتل حمزة، فمكنه الله عز وجل من مسيلمة فقتله.

ولهذا نقول: إن تصفية الحسابات الذاتية ينبغي ألا يقوم عليها المصلحون؛ لأنهم لا ينتصرون لذواتهم، فهذا يوسف عليه السلام بقي في السجن بضع سنين، لما خرج خرج في زمن مهلكة وبداية مجاعة، هل أراد تصفية الحسابات أم أراد إصلاح الوضع العام؟ أراد إصلاح الوضع العام، فقال: اجعلني على خزائن الأرض، ما قال: ائتني بزوجتك التي فعلت وفعلت وفعلت، الآن مسألة إغاثة وإنقاذ أمة لا تصفية حسابات ذاتية؛ لهذا نقول: إن المصلحين هم الذين ينتصرون للأمة لا ينتصرون لذواتهم، وإقامة العدل في الأرض هذه رسالة المصلحين، الأمة إنما تبلى بالانتصار للذوات، أريد حقي، ولماذا فلان فعل كذا؟ وفلان فعل كذا؟ ممن دخل في دائرة الحق، إذا آب الإنسان وتاب، وظهر منه إظهار الحق فينبغي للإنسان أن يبعد تلك الأمور، النبي عليه الصلاة والسلام من شدة ما يجد من قتل حمزة ما أراد أن يتذكر ذلك، وألا يذكره أحد؛ لأنه شيء مضى، قال: (إن استطعت ألا تريني وجهك فافعل)، لأني كلما أراك سأتذكر تلك المصيبة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول هذا وهو المعصوم الذي لا

يمكن أن يرتكب خطأ، لكنه أراد ألا يزداد الألم النفسي عليه فيشغله عن مصالح الأمة.

لهذا نقول: لا تعيشوا لأنفسكم بل عيشوا لمصالح الأمة، لإقامة دين الله عز وجل والعدل، ابتعدوا عن المصالح الذاتية، وعن الإنتصار لذات الإنسان وحضه، ما دامت مصلحة الأمة قائمة فعليكم أن تشتركوا في إقامة الحق الذي أراده الله عز وجل لكم، ابتعدوا عن تصفية الحسابات الذاتية لفلان وفلان وفلان وفلان، وانظروا إلى الأمور المشتركة، إن أكملتم الأمور المشتركة وبقيت أمور فردية فهي تبحث بعد ذلك؛ لأن الأمة لا تضيع إلا بالبحث عن الجزئيات عند التفريط في الكليات، فابحثوا عن كمال هذه الكليات وبنائها، فإن اكتملت لكم فعليكم أن تنظروا بعد ذلك إلى الأمور المتدرجة في هذا، أعانني الله وإياكم على الحق والهدى والسداد.

باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا

قال رحمه الله: [باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا.

وقال علي: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله.

حدثنا عبيد الله بن موسى عن معروف خربوذ، عن أبي الطفيل عن علي بذلك.

حدثنا إسحاق بن إبراهيم، قال: حدثنا معاذ بن هشام، قال: حدثني أبي، عن قتادة، قال: حدثنا أنس بن مالك (أن النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ رديفه على الرحل، قال: يا معاذ بن جبل. قال: لبيك يا رسول الله! وسعديك. قال: يا معاذ! قال: لبيك يا رسول الله! وسعديك ثلاثاً، قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمّداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار. قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: إذاً يتكلوا) وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً.

حدثنا مسدد، قال: حدثنا معتمر، قال: سمعت أبي، قال: سمعت أنساً قال: ذكر لي أن النبي ﷺ قال: لمعاذ: (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة. قال: ألا أبشر الناس؟ قال: لا إني أخاف أن يتكلوا)].

وهذا من السياسة الشريعة في إبلاغ العلم، وعلى ما تقدم أن العالم هو الذي يعلم الناس ويشفى مرض الجهل فيهم، كحال الطبيب الذي يشفي مرض الأبدان؛ فينبغي للإنسان أن ينظر إلى أحوالهم وآثار ذلك التعليم عليهم، ويعرف أيضاً المواضع وحال النفوس في تلقيها للعلم؛ ولهذا النبي ﷺ علم بعض الصحابة عليهم رضوان الله تعالى علماً، ولم يعلم الآخرين، أو علم بعضاً ولم يعلم بعضاً؛ لأن أثر العلم على هؤلاء يختلف عن أثر العلم على هؤلاء.

ولهذا إذا رأى الإنسان شخصاً من الأشخاص مفرطاً في دين الله سبحانه وتعالى ألا يزيده تفريطاً بآيات التوكل، وآيات الرجاء، وإنما عليه أن يعلمه بآيات وأحاديث التخويف والتوبة، وكذلك شدة عذاب الله سبحانه وتعالى، ولا يليق بالإنسان إذا رأى رجلاً

يشرب الخمر، أو رجلاً يحل الربا ونحو ذلك، وهو باقٍ على هذا الأمر، أن يقول له: إن الله عز وجل غفور رحيم، وابقَ على ما أنت عليه، بل يبين له خطورة هذا الأمر، ويبين له أيضاً أن الله عز وجل غفور رحيم لمن تاب حتى يعود.

والله عز وجل قد جعل هذه الأشياء تحت مشيئته، لكن هذا واجب الإنسان حتى يسوس الناس بالعلم الذي لديه، فيرهب من يستحق الترهيب، ويرغب من يستحق الترغيب في ذلك، ويوجه خطاباً عاماً، وخطاباً خاصاً، لذا قال النبي ﷺ: (لا تبشر الناس فيتكلوا)، وهؤلاء هم الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، فإذا كان هذا في الصحابة وهم خير الخلق بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، فكيف بمن يبالغ بذكر آيات وأحاديث الرجاء، ويبتعد عن آيات التخويف والتهديد خشية على الناس، هذا لا شك أنه من التقصير في بيان الحق؛ لهذا ينبغي للإنسان أن ينظر إلى أحوال الناس.

إذا وجد الإنسان وجلاً من ذنب أقلع منه قديماً وتاب إلى الله واستقام، حتى بلغ به مرتبة الوسوسة فإنه يكثر من آيات الرجاء، والتوكل على الله عز وجل، والرحمة والمغفرة، وسعة فضل الله عز وجل على عباده، حتى يسكن ولا يقنط.

وأما الإنسان المفرط فتأتيه بآيات التشديد والعقاب التي يتوعد الله عز وجل به عباده حتى يقرب من الله سبحانه وتعالى وحتى يصل إلى مرتبة الاعتدال في ذلك، وهذا من السياسة الشرعية؛ ولهذا النبي ﷺ كما في حديث حذيفة كان يعلمه بأسماء المنافقين، وما كان النبي ﷺ يعلم من هو أجل منه وأفضل كأبي بكر وعمر، والحكم في ذلك متعددة منها:

أن الناس يؤتون بعض الخصال الفطرية، كشدة الكتمان مثلاً، ولا يعاب الإنسان في بعض الشيء الذي يقوله ما لم يستأمن عليه، وهذا لا يجعل الإنسان المفضول أفضل من غيره من جميع الوجوه، بل يقال إنه من هذه الخصيصة؛ ولهذا أبو بكر الصديق عليه رضوان الله تعالى وعمر بن الخطاب هما أفضل من غيرهما من الصحابة بالإطلاق، لكن قد يوجد في بعض الصحابة عليهم رضوان الله تعالى من الخصال ما يفضل بها على غيره في هذا الباب.

ولكن نقول: إن الخصال المكتسبة فاق فيها أبو بكر عليه رضوان الله تعالى، أما الخصال الفطرية التي يجبل عليها الإنسان فقد يوجد من الصحابة من هو أشد بسطة في الجسم، هل هذا منقصة لغيره؟ ليست منقصة، هل هو فضل له في دينه على غيره؟ لا ليس له فضل في دينه على غيره؛ لأنه ليس مكتسباً، أما الصفات المكتسبة فأبو بكر وعمروعثمان وعلي بن أبي طالب أفضل من غيرهم؛ فلهذا الجانب الفطري قدم النبي ﷺ حذيفة بن اليمان على غيره.

منها أيضاً أن النبي ﷺ أعلمه الله عز وجل أن ثمة خلفاء راشدين بعده، منهم أبو بكر ومنهم عمر، وأن من المنافقين من سيبقى معه بعد ذلك، ولو أعلمهم بأسمائهم فربما حملهم ذلك على بعض التصرف؛ وهم ليسوا بمعصومين، فأراد النبي ﷺ ذلك سياسة منه، وذلك أن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى في حياة النبي عليه الصلاة والسلام يستأذن النبي في قتل من ظهر منه شيء، فكيف إذا أخبره النبي ﷺ بأسمائهم بعد ذلك، وهذا من سياسة رسول الله ﷺ، وكمال حكمته لصلاح الخلفاء من بعده،

وصلاح الأمة.

وهذا ما ينبغي أن يؤخذ وهو أن النبي ﷺ لحكمته كان يبلغ أقواماً بأشياء، ويبلغ آخرين لسياسية هذه الأمة، وسياسة أمر الدين في أبواب العلم وفي أبواب الأخبار وفي أبواب الموعظة، فكان النبي ﷺ قد ربى خير الأجيال بعده في أبواب العلم، وفي أبواب المعرفة، وفي أبواب التربية والسلوك والأدب.

والعلماء يتفقون على أنه لا حرج على العالم أن يقول بالمرجوح أو يدع السنة جمعاً للكلمة، وذلك لأن الاجتماع من المقاصد الشرعية، فنقول: إن أمر الاجتماع متأكد، وهو آكد من السنن الذي يأتي بها الإنسان، مثلاً في بلد من البلدان يؤذنون مثلاً بأذان أبي محذورة، وفي بلد لا يؤذنون بذلك، والناس لا يعلمون مثل هذا الاختلاف، وإذا جاء في هذا البلد وأذن عند العامة – والعلم لديهم قليل– ظنوا أن هذا إحداث وتبديل لدين الله، فوقع لديهم شيء من الاضطراب، أليس الأولى في هذا هو ترك بعض السنن لجمع الكلمة وتأليف القلوب؟ نعم، هل يعني هذا إخفاء للسنة؟ لا. بل نقول: اجلس مع الناس وعلمهم أسبوعاً وأسبوعين بهذه السنة، ثم أذن فيها، وهذا له مواضعه من أمور السنن، وله مواضعه أيضاً من الأمور الواجبة.

باب الحياء في العلم

قال رحمه الله: [باب الحياء في العلم. وقال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحي، ولا مستكبر. وقالت عائشة: نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.

حدثنا مُحَمَّد بن سلام، قال: أخبرنا أبو معاوية، قال: حدثنا هشام، عن أبيه عن زينب ابنةِ أم سلمة، عن أم سلمةقالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: (يا رسول الله! إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ: إذا رأت الماء فغطت أم سلمة – تعني: وجهها –، وقالت: يا رسول الله! وتحتلم المرأة؟ قال: نعم تربت يمينك فبم يشبهها ولدها).

حدثنا إسماعيل، قال: حدثني مالك، عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، فقالوا: يا رسول الله أخبرنا بها، فقال رسول الله ﷺ: هي النخلة. قال عبد الله فحدثت أبي بما وقع في نفسي فقال: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا)] .

ذكر المصنف باب الحياء في العلم، نقول: إن العلم لا يناله مستحٍ، فالذي يستحي من السؤال خجلاً من جهله أو نحو ذلك، أو الذي يتكبر يخشى أن يفهم أنه يجهل هذه المسائل فقد حرم نفسه من العلم، والاعتراف بالجهل هو بوابة العلم، فالإنسان لا يصل إلى درجة الصواب إلا على عتبة الخطأ، فالخطأ أمر جبل عليه الإنسان، فلا يستحي الإنسان من أمثال هذه الأشياء.

ومن عبارات الخطأ التي يستعملها الناس، هي قولهم: لا حياء في الدين، وهذا من الخطأ، الدين كله حياء، ولكن نقول: لا حياء في العلم والتعلم، فيعلم الإنسان غيره، ويعلم العالم الجاهل العلم حتى المسائل التي ربما يقع للإنسان حرج من ذكرها وتفصيلها ونحو ذلك، يسأل حتى يستبرأ لدينه، تسأل المرأة كذلك ما تبرأ بها ذمتها، فربما يقع الإنسان في إثم ويمنعه من ذلك الحياء من سؤال عالم، أو سؤال قريب، أو سؤال زوج، أو سؤال أخ، أو نحو ذلك، هذا من الأمور التي يأثم بها الإنسان إذا منعه من ذلك الحياء.

كذلك أيضاً لا يمنع الإنسان الحياء من جهله أن يتعلم، وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم، كحال أبي بكر الصديق عليه رضوان الله تعالى، فقد تعلم من النبي عليه الصلاة والسلام ولم يمنعه سنه من سؤال النبي عليه الصلاة والسلام، وكذلك أيضاً الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، مع علو منزلتهم وكبر سنهم، لم يمنعهم أيضاً أن يسألوا من دونهم، كحال عمر بن الخطاب، فكان يسأل عبد الله بن عباس عليهم رضوان الله تعالى عن مسائل الدين ومسائل التأويل، التي ربما ليس عند عمر بن الخطاب منها علم، وكانوا أيضاً يأتون إلى عائشة عليها رضوان الله تعالى ويسألونها، وهي امرأة ليست في سنهم بل هي صغيرة.

ولهذا نقول: إن الإنسان في سؤاله للعلم عليه أن يترك الحياء، حتى يكتمل له العلم، وألا يستحي من جهله ولا من خطئه، ولا من ظهور ذلك للناس، فإن الجهل أمر يفطر عليه الناس، والإنسان لا يولد متعلماً، بل يولد جاهلاً ثم يتعلم بعد ذلك.

وفي هذا أيضاً شدة عفاف الصحابيات عليهن رضوان الله تعالى، حتى إن أم سلمة استحت عليها رضوان الله تعالى فقالت: أو تحتلم المرأة؛ لأنها لا تعلم من ذلك شيئاً، وهذا لسلامة فطرهن ونقائهن وعفافهن وطهرهن عليهن رضوان الله تعالى.

وأما حديث عبد الله بن عمر فقد تقدم قبل ذلك، وفيه سؤال النبي عليه الصلاة والسلام عن الشجرة.

وفي قول عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا. أن الإنسان يحب أن يظهر علم ابنه وفضله وتعلمه، فأحب أن يكون أجاب، حتى يظهر للنبي ﷺ نجابة عبد الله بن عمر وفضله وتميزه على غيره، فإن النفوس مجبولة على حب ذلك لأبنائها، وكذلك بناتها والأقربين منها.

باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال

قال رحمه الله: [باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال.

حدثنا مسدد، قال: حدثنا عبد الله بن داود، عن الأعمش، عن منذر الثوري عن مُحَمَّد بن الحنفية عن علي قال: (كنت رجلاً مذاء فأمرت المقداد أن يسأل النبي ﷺ فسأله، فقال: فيه الوضوء)] .

في قوله هنا: (باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال)، يعني مع وجود الحياء لم يمتنع عن التعلم، وإنما طلب من غيره أن يسأل حتى

يتحقق له العلم، سواء كان بمباشرة أو بغيره، وإنما استحيا علي بن أبي طالب عليه رضوان الله تعالى، لمقام النبي ﷺ من زوجته، وهذا لشدة الحياء، وكذلك أيضاً العفاف فيما بينهم، والتعظيم والإجلال لرسول الله ﷺ، فإن فاطمة وهي بنت النبي عليه الصلاة والسلام عليها رضوان الله زوجة علي بن أبي طالب، استحيا أن يسأله في شيء من خاصته بينه وبينها، فأوكل غيره أن يسأله عن ذلك.

والمذي: هو الذي يخرج من الرجل بشهوة بلا دم، وهو نجس أيضاً، وحكي الإجماع على هذا، كما حكاه ابن العربي، وكذلك أيضاً الودي حكي الإجماع على نجاسته، وهو أشد اصفراراً وهو مرض يخرج من الإنسان بلا شهوة، إذاً: فالذي يخرج من الإنسان مذي وودي ومني، فالمني طاهر، والودي والمذي نجسان، وهذا أيضاً حكى بعضهم فيه خلاف، أما المذي فحكي فيه الإجماع وكذلك الودي، أما المني فهو طاهر على الأرجح، وظواهر الأدلة تعضده في هذا، وقد جاء عن عائشة عليها رضوان الله تعالى، (أنها كانت تحكه بيدها من ثوب رسول الله ﷺ)، ولو لم يكن طاهراً ما حكته بيدها، فهذا دليل على طهارته؛ لأن النجاسة لا يباشرها الإنسان بيده، وإنما يزيلها بحائل.

باب ذكر العلم والفتيا في المسجد

قال رحمه الله: [باب ذكر العلم والفتيا في المسجد.

حدثني قتيبة بن سعيد، قال: حدثنا الليث بن سعد، قال: حدثنا نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن عبد الله بن عمر (أن رجلاً قام في المسجد فقال: يا رسول الله! من أين تأمرنا أن نهل؟ فقال رسول الله ﷺ: يهل أهل المدينة من ذي الحليفة، ويهل أهل الشام من الجحْفة، ويهل أهل نجد من قرن)، وقال ابن عمر: ويزعمون أن رسول الله ﷺ قال: (ويهل أهل اليمن من يلملم)، وكان ابن عمر يقول: لم أفقه هذه من رسول الله ﷺ] .

في هذا الحديث ذكر أن الأصل في تعليم النبي ﷺ لأصحابه أنه يكون في المسجد، وإجابته كذلك أيضاً للناس في تعليمهم، وكذلك أيضاً إرشادهم، وهنا ذكر عبد الله بن عمر أن رجلاً قام في المسجد، فقال: يا رسول الله! من أين تأمرنا أن نهل؟ يعني بالحج، وهذا فيه أن النبي ﷺ، كان يجعل موضع التعليم لأصحابه غالباً في مسجده، ولهذا جاء في الخبر عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)، والمراد برياض الجنة هي مواضع العلم، وقد جاء في الخبر عند الترمذي وغيره أن النبي ﷺ قال: (إذا مررتم برياض الجنة، فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر)، فالذكر إذا أطلق في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ يراد به العلم، والفقه بالحلال والحرام، ولهذا يقول عطاء: ذكر الله هو كيف تصلي، وكيف وتزكي، وكيف تنكح، وكيف تطلق. يعني: معرفة الأحكام، والحلال والحرام، وهذا المراد بقول النبي عليه الصلاة والسلام: (إذا مررتم برياض الجنة)، يعني: حلق الذكر التي تتفقهون فيها أحكام الدين، هذا الأصل، ثم يأتي بعد ذلك تبعاً ذكر الله عز وجل بتسبيحه وتهليله وتحميده وغير ذلك من الأذكار التي يتعلمها، أو يذكر الإنسان بها ربه سبحانه وتعالى، سواء كان في مجلس

واحد معه غيره أو كان منفرداً، فهي أيضاً من مجالس الذكر.

وفي قول النبي عليه الصلاة والسلام: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة) ذهب جماعة من العلماء وهو قول ابن عبد البر، ورجحه ابن القيم رحمه الله أيضاً في الجواب الكافي، وغيرهم أن المراد بذلك هو موضع التعليم، موضع جلوس النبي عليه الصلاة والسلام، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول تعالوا إلى هذا الموضع تعلموا، فهو روضة من رياض الجنة، يعني لو أن النبي عليه الصلاة والسلام انتقل إلى غير هذا الموضع لكان روضة كذلك، ومن العلماء من قال: إن هذا الموضع هو روضة من رياض الجنة حقيقة، فتستحب فيه العبادة، وهذا فيما أرى أنه مرجوح، وأن المراد بذلك هو موضع للتعليم، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يحث أصحابه ويحضهم عليه.

وقول ابن عمر: لم أفقه هذا من رسول الله ﷺ يقصد في هذا مهل أهل اليمن من يلملم، يعني يقول: لا أذكر أن النبي قالها، يعني أن ابن عمر يريد أن يبين أن هذا الذي أضبطه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويزعمون أن النبي قال، ولم أسمعه من رسول الله ﷺ، هذا لدقته وعنايته بنقل الخبر كما سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومعلوم أن ميقات أهل اليمن هو يلملم كما هو ثابت في السنة من حديث ابن عباس .

باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله

قال رحمه الله: [باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله.

حدثنا آدم، قال: حدثنا ابن أبي ذئب، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، وعن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: (أن رجلاً سأله ما يلبس المحرم؟ فقال: لا يلبس القميص، ولا العمامة، ولا السراويل، ولا البُرْنُس، ولا ثوباً مسه الورس أو الزعفران، فإن لم يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكونا تحت الكعبين)] .

في قول المصنف رحمه الله: (باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله) هذا من فقه العالم أن يجيب السائل بأكثر مما سأله، إذا كان يحتاج إليه، من غير إسهاب أو إشغال، وذلك أن الإنسان ربما يسأل عن مسألة من المسائل، ويتبادر إلى ذهن العالم أنه يجهل مسألة يحتاجها أيضاً في هذا الباب، ولهذا رسول الله ﷺ لما سأله الرجل كما قال عبد الله بن عمر عما يلبس المحرم، سأله عما يلبس، ما سأله عما لا يلبس، فأجابه بجواب أتم من هذا، وكذلك أيضاً في حديث أبي هريرة عليه رضوان الله، لما جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله! إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإذا توضأنا به عطشنا)، يسأل عن ماء البحر، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته)، مع أنه ما سئل عن ميتة البحر، وعن أكل السمك، وإنما سأل عن الماء فقط، يعني: أنك تحتاج إلى هذا الجواب ربما يغيب عنك، سأجيبك على هذا وأزيد أمراً آخر، وهذا من فقه السائل، ربما يسألك الإنسان مثلاً في سفر عن حكم من الأحكام، فيسأل عن مسألة مثلاً في القصر، أو في التيمم، أو في

المسح على الخفين، وتعلم أنه ربما إذا جهل هذه المسألة فسيجهل أختها، الذي يجهل طهورية الماء، يجهل طهوريات، أو إباحتك للسمك من باب أولى، ولهذا ينبغي للإنسان أن يعرف مراتب الجهل وأحوال السائلين حتى يجيبهم فيما هو أكمل جواباً وأشفى لعيه، فإذا سئل الإنسان عن مسألة من المسائل، ورأى أن مثل هذه المسألة لا تجهل يعلم أن مسألة هناك أولى منها يحتاج إليها، ويتلبس بها الإنسان فيجيبه في مثل هذا الأمر، وهذا من تمام الفقه، وكذلك أيضاً إبراء الذمة.

ونكتفي بهذا القدر، وأسأل الله عز وجل لي ولكم التوفيق والسداد والإعانة، وأسأله جل وعلا أن ينفعنا بما علمنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد.